# ذُريَّة بَعْضُها مِن بَعْضٍ

أسماء بنت أبي بكر الصّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ واحدة من فضليات الصحابة، ولدت في أسرة الصّدِّيق الماجدة، التي رفعها الإسلام إلى الذروة، وصارت علماً في التاريخ الإنساني قاطبة. إنها ثمرة الإيمان، وشجرة باسقة من أشجار الإسلام، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

كان البيت الذي عاش فيه أبوها كبقية البيوت في قريش، فوالدها عبد اللَّه بن أبي قحافة واحدٌ من تجار مكة، له فضل ومكانة.

وجدها لأبيها (أبو قحافة) هو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي.

يلتقي مع رسول الله ﷺ في مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكان يعرف الصّدِّيق باسم آخر ـ ولعله كان لقباً ـ هو عتيق، لعتاقة وجهه وحسنه وجماله[1]، وما إن بعث رسول الله ﷺ بالرسالة حتى

---

(١) روت عائشة رضي الله عنها: «أن أبا بكر الصّديق رضي الله عنه دخل على =

بادر أبو بكر إلى تصديقه دون تردد، فعرف بعد ذلك بالصّدِّيق، «أو جمعت الأمة على تسميته بالصّدِّيق، لأنه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ، ولازم الصدق، فلم تقع منه هناة ما، ولا وقفة في حال من الأحوال، وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة»[1].

وتزوج الصّدِّيق بأكثر من امرأة، ومن زوجاته «قَتْلَة» أو «قَتيلة» بنت عبد العزى بن عبد بن سعد بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشية العامرية، وكان زواجه منها في الجاهلية، فأنجبت له أسماء وعبد اللّه ثم طلقها بعد الإسلام.

وكانت «قتلة» أو «قتيلة» واحدة من النساء التي تحب أولادها، وتحنو عليهم، ولكن طلاقها من أبي بكر، ثم بقاءها على جاهليتها فرَّق بينها وبين أولادها، ثم أسلمت كما تؤكد أكثر الروايات. وكان ذلك بعد الفتح.

وكان الصّدِّيق أباً براً بأبنائه، سخياً عليهم، كريم الخلق، رزق بأولاد عديدين من أزواجه، وعاشوا معاً في كنف الصّدِّيق، وهم عبد اللّه شقيق أسماء، وأمهما قتيلة، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر،

---

= رسول الله ﷺ فقال: «أنت عتيق الله من النار»، فمن يومئذٍ سُمِّي عتيقاً» رواه الترمذي وقال: غريب (تحفة أهل التصديق ببعض فضائل الإمام أبي بكر الصّديق) الشيخ عبد القادر بن جلال الدين المحلي الأنصاري، ص ١١٦. وقال مصعب بن الزبير وغيره: قيل له عتيق لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به.

(١) من حديث مصعب بن الزبير. انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، ص٢٧. وإلى ترجمته في «الإصابة»، و«أسد الغابة»، و«الطبقات الكبرى»، و«الاستيعاب»، و«الحلية» وغيرها من الكتب.

وعائشة أم المؤمنين، وأمهما «أم رومان بنت عمير بن عامر من بني فراس بن غَنْم بن كنانة»، ومحمد بن أبي بكر وأمه «أسماء بنت عميس»، وأم كلثوم بنت أبي بكر وأمها «أسماء بنت زيد بن خارجة من الأنصار».

ولم تكن زوجات الصّدِّيق مع بعض، لأن زواجه رضي الله عنه من أسماء بنت عميس كان بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب في مؤتة، وزواجه من أسماء بنت زيد كان في أواخر حياته.

وهكذا كانت الأسرة تعيش في وئام وصفاء ومحبة، مع كرم الأب، وحسن خلقه، وكريم خصاله، وكيف لا يكون ذلك والصّدِّيق رجل تحدثت عنه قريش في الجاهلية كما تحدث عنه المسلمون في الإسلام، كان واحداً من رجالها المعدودين في الخلق والسماحة والتعقل والشهامة لذا أوكلت إليه أمر الديّات، والغرم، ومن يتولى هذه المهمة يحتاج إلى سماحة نفس، ورجاحة عقل، وروية وصبر، وكرم ومروءة، وكذا كان الصّدِّيق.

وهو أعلم قريش بالأنساب، قال عنه النووي: «كان من رؤساء قريش في الجاهلية، وأهل مشاورتهم، ومحبباً فيهم، وأعلم لمعالمهم، فلما جاء الإسلام آثره على ما سواه، ودخل فيه أكمل دخول»[1]. وحين كانت قريش تلهو وتصخب، ولا يسلم من هذا الطيش كبير ولا صغير، كان الصّدِّيق من القلائل الذين أبت عليهم مروءتهم ورجاحة عقلهم أن ينغمسوا في اللهو المهين، حيث كان

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات».

اللهو سمة الشباب، ومَيْسم العصر. وكذا كتب عنه التاريخ، حيث تحدثت عنه عائشة أم المؤمنين، العالمة التقية فقالت: «لقد كان حرَّم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية»[1].

وذكر ابن عساكر بسند صحيح عن عائشة وهي تتحدث عن أبيها: «أنه حرم الخمر على نفسه في الجاهلية هو وعثمان بن عفان رضي الله عنهما» وجلس الصّدِّيق مرة في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ فسأله بعضهم: هل شربت الخمر في الجاهلية؟

فأجاب الصّدِّيق: أعوذ بالله.

فقال له السائل: ولِمَ؟

فقال له: كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان مضيَّعاً في عرضه ومروءته.

وازداد إعجاب المسلمين بالصّدِّيق من مقالته هذه، ومن خلقه وعقله فنقلوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**صدق أبو بكر، صدق أبو بكر**»[2].

وكان أبناء الصّدِّيق، يرون ما لأبيهم من فضائل: لا صخب، ولا عنف، ولا ضرب، ولا هجران، رجل يعرف قدر نفسه، ويؤثر المروءة على المصلحة، ويحترم عقله وإنسانيته.

لم يكن أحد من أبنائه يضجر أو يسأم من حياة أبيه، بل كانوا

---

(١) أخرجه أبو نعيم بسند جيد.

(٢) قيل: إن هذا الحديث مرسل غريب سنداً ومتناً، «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، ويبقى مضمونه صحيحاً.

جميعاً ينظرون إليه نظرة حب وإعجاب، ويفخرون بأنهم أبناء عبد اللَّه بن أبي قحافة الذي عرفته قريش بهذه الصّفات، ويتحدثون فيما بينهم عن خصاله وخلقه، فيأخذ كل منهم صورة من صوره، ويتمنون أن يكونوا مثله في رجحان العقل وسماحة النفس وطيب الخلق، واستقامة الطبع وقوة الإيمان.

كانت تلك حياة الصّدِّيق في الجاهلية، حين كان الناس غارقين في الضلالات، فلما بعث رسول الله ﷺ، دخل في الدين الجديد، لأن هذه المكارم لن يجدها إلا في الإسلام، فازداد شرفاً وكرماً ومروءة.

وأشرق بيته كله بهذا النور الغامر، كانت فرحتهم بالإسلام كفرحة أبيهم لأنهم رأوا بهذا الدين كل مكرمة ينشدها الإنسان. وأعطى كل شيء لله عزّ وجلّ، وربى بيته على هذا العطاء وهذا الطريق، حتى كان صاحب رسول الله ﷺ، وأوّل من أسلم من الرجال، كانت أسماء وإخوانها يرون أباهم وقد أعطى مهجته ووقته وماله للإسلام، ووقف حياته كلها للدعوة، فكانوا معه أبناء بررة صادقين، وحملوا معه الدعوة أوفياء صابرين.

ها هي عائشة رضي الله عنها تتحدث عن ذكرياتها عن أبيها فتقول: «والله إني لفي بيتي ذات يوم، ورسول الله ﷺ وأصحابه في الفناء، والستر بيني وبينهم، إذ أقبل أبو بكر، فقال النبي ﷺ: «**من سرَّه أن ينظر إلى عتيق من النّار فلينظر إلى أبي بكر**»[1]، فهل هناك

---

(١) ولعله لُقِّب بالعتيق لهذا السبب.

أصدق من هذه الشهادة؟ فهي شهادة الصّدق والاستقامة، شهادة الإيمان والفلاح في الدنيا والآخرة.

وتسمع أسماء وأختها هذا الثناء فتزدادان إعجاباً بأبيهما، وحرصاً على الاقتداء به في حب الله ورسوله، والتضحية في سبيل الله والاستقامة على طريق الإسلام.

وهل يحلم مخلوق بأكرم من ذلك: العتق من النّار، والنّعيم والرضوان عند الله العزيز الكريم.

كان الصّدِّيق يزداد حباً لله ورسوله، وصدقاً في العمل، وشكراً لله المنعم القدير، ويفيض هذا الفضل من الله على بيته طهراً وصلاحاً ووئاماً.

وظل أبو بكر الصّدِّيق ـ الأب المسلم الصّادق ـ في صلاحه وتقواه حتى ليقول فيه رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنْ أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام**»(١).

وروى محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟

قال علي: أبو بكر.

قلت: ثم مَن؟

قال: عمر.

وخشيت أن يقول عثمان، فقلت: ثم أنت.

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي سعيد.

قال علي: ما أنا إلا رجل من المسلمين[1].

هذا بعض ما كان له من مزايا وأخلاق، والتي تعلَّمها أبناؤه منه حيث رأوا سرعة استجابته للحق، والعودة إلى فطرة الله ودخوله في الإسلام، فلا غرابة أن نجد من أولاده وأحفاده بعد ذلك هذا الخلق الكريم من التمسك بالإسلام والحرص على الحق.

يقول رسول الله ﷺ: «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة، وترددونظر، إلا أبابكر، ماعَتَمَعنه حين ذكرته وما ترددفيه**»[2].

وعندما سمع عليه الصّلاة والسلام أناساً يذكرون الصّدِّيق بشيء أجابهم: «**هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ إني قلت: أيها الناس، إني رسول إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت**»[3].

ولم يجمع صحابة رسول الله ﷺ على أفضلية أحد إلا الصّدِّيق، وقدَّموه عليهم جميعاً، يقول أبو هريرة: «كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ ـ ونحن متوافرون ـ نقول: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نسكت»[4]. وصعد عمر المنبر مرة ثم قال: «ألا إنّ أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، فمن قال غير ذلك فهو مفتر، عليه ما على المفتري»[5]. وقال: «لو وُزن

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) عن محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد اللَّه الحصين التميمي.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي الدرداء.

(٤) أخرجه ابن عساكر.

(٥) المفتري: الكاذب الذي يختلق الكلام أو القاذف لغيره.

إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم»، و: «لوددت أني شعرة في صدر أبي بكر»، بل يحدِّث عمرُ رسولَ الله ﷺ: «بأنه ما سبق أبا بكر إلى خير قط إلا سبقه به».

هكذا كان رب الأسرة التي عاشت فيها أسماء، من الإيمان والصّدق، يعترف بذلك كل النّاس، ويثني عليه رسول الله ﷺ والمؤمنون حتى نزلت آيات تبشِّره بالمغفرة والجنة، فلا غرابة أن تجمع أمة الإسلام قديماً وحديثاً على فضله وخلقه.

والأبناء يتطلعون دوماً إلى أبيهم ليأخذوا منه صوراً من السلوك فيقتدون بها، ولذا فإن الصّدِّيق الذي يخشى حساب الله عزّ وجلّ له ما كان ليفرّط في صغيرة ولا كبيرة حتى ظل في حقيقة أمره قدوة ـ حقاً ـ قدوة لأبنائه، وقدوة للمسلمين.

كانت أخلاقه طرازاً رفيعاً من خشية الله، والثقة به، والطمأنينة إليه، رغم اشتداد المحن وكثرة الأذى من المشركين.

وكان حسن التأدب مع الناس، طيب المعاشرة للأقربين والأبعدين. لم يؤثر عنه أنه وقف يزجر ابناً له، لأن أخلاقه وحسن فعاله تكفي لتكون وسيلة للتربية، وأداة للتأدب.

بل كان أولاده يرون فيه القدوة والمثل الطيب بعد رسول الله ﷺ. وكان ينقل إليهم بالحديث والعمل ما يتنزل على رسول الله ﷺ من آيات، وما ينطق من أحاديث ومواعظ، ويتحول البيت بفضل الله إلى هذا الخير، يحمل الآيات ليفهمها ويعمل بها، ويحمل الأحاديث ليفهمها ويعمل بها، فهم وأبوهم للإسلام وفي سبيله، وكان الصّدِّيق حريصاً على أن ينشأ أبناؤه على العقيدة، لأنها

مسؤوليته أمام ربه عزّ وجلّ، وهذه الركيزة كانت أعمق ما تكون في بيته ـ رضي الله عنه ـ وكان أبناؤه يرون في كل يوم صورة من صور العقيدة في سلوك أبيهم، وفي خلقه وصبره، حتى أصبحت هذه العقيدة حياتَهم التي يحيون، ودماءَهم التي تغذي أجسادهم.

والناس عادة يحبون المال، والأولاد يحرصون على الرفاه ورغد العيش لا سيما إذا كان أبوهم غنياً كما كان الصّدِّيق التاجر الصّدوق. بل ربما يرى الأولاد أن من حقهم أن يتمتعوا بملذات الحياة ما دام لأبيهم هذه المكانة بين قومه.

ولكن ماذا علَّمهم الصّدِّيق في هذا الجانب.

كان تاجراً غنياً قبل الدعوة، وبعد دخوله الإسلام، صار همه ووقته من أجل الدعوة، لقد نزع حياته من الجاهلية نزعاً، ووضعها في خدمة الإسلام طواعية. وترك كل طاعة لغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولرسوله ﷺ.

ووقف يدافع عن رسول الله ﷺ عندما همَّ الناس من المشركين بإيذائه، وتحمل الضرَّ والأذى والعذاب في سبيل الله.

كان يعود إلى بيته كل يوم، فيقص على أبنائه أخبار الدعوة: من أسلم ومن عارض، من عُذِّب، ومن مات، من هاجر ومن افتتن، بل ويرون آثار ذلك عليه في كثير من المرات، إنهم يتلقون كل يوم درساً في الإيمان، وصدق الاعتقاد، وكان الدرس أبلغ ما يكون، وأوضح ما يمكن، وظل عندهم عميقاً حتى لاقوا ربّهم عزّ وجلّ.

وعاد الصّدِّيق مرة إلى البيت محمولاً من قبل إخوانه بعد أن

ضربته قريش حتى أغمي عليه، لأنه دافع عن رسول الله ﷺ وحال بين قريش وبين نيلها منه.

وحين حالت قريش دون سماع الناس لكلمة الحق، ونشرت الرعب في مكة حتى لا يجرؤ مسلم على النطق بكلمة الإسلام، وقف خطيباً بين الناس، يدعو إلى دين الله، وكان أوّل خطيب بعد رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام، فعلَّم أبناءه أن الشجاعة الحقيقية هي في قول الحق، يوم تمتلئ قلوب الناس بالرعب والخوف.

وإذا قيست الشجاعة في الصبر على شدة القتال، واقتحام الخطر يوم النزال، فلقد رأى أبناؤه كيف وقف وحده في وجه زعماء قريش ومن معهم من عشائر وقبائل ليدافع عن رسول الله ﷺ قائلاً: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟.

هكذا كانت مشاهد التربية الإيمانية الحقة يتلقنها بيت الصّدِّيق وتعيشها أسماء ـ ابنته الكبرى ـ في كل لحظة وكل ناحية حتى انغرست عقيدة التوحيد في أعماقهم، وأصبحت الشجاعة في سبيل الله سمة حياتهم.

تقول عائشة رضي الله عنها ـ ويروي حفيده عروة بن الزبير أيضاً: أن أبا بكر أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار ـ وفي رواية درهم ـ فأنفقها على رسول الله ﷺ.

وعندما هاجر إلى المدينة كما قال ابن عمر كان معه خمسة آلاف، كل ذلك أنفقه في الرقاب والعون على الإسلام، ثم جاء بكل ما بقي من ماله إلى رسول الله ﷺ لتجهيز جيش العسرة.

ورسول الله صلوات الله عليه وسلامه يثني عليه في ذلك فيقول: «ما أحد أعظم يداً من أبي بكر: واساني بنفسه وماله، وأنكحني ابنته».

هكذا علَّم أبناءه أن المال والبنين في سبيل الله لأن الباقيات الصّالحات خير عند الله ـ عزّ وجلّ ـ وأبقى.

نعم كان الصّدِّيق رحيماً بأبنائه، عطوفاً شفيقاً، وكان يعلم أن ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾ ولكنه كان يريد الآخرة، ويخشى أن يصبح وسيلة للفتنة والبوار ﴿**إنّما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**﴾.

فلماذا لا يتربى الأولاد على الإيمان ليصبحوا قرة العين، وبهجة القلب بالتقوى والصّلاح والإيمان؟.

وكم سقط من أجل المال رجال وزاغ عن الحق أناس!؟.

فالمال وسيلة وزينة، ويصبح خيراً حينما يُستخدم للطاعة، وعندها يغدو كنزاً لصاحبه عند الله.

لهذا كان ينفق كثيراً من ماله في عتق الرقيق الذين أسلموا، فكان يعتق عجائز ونساءً أسلمن، فقال له أبوه: أيْ بُني، أراك تعتق أناساً ضعافاً، فلو أنك تعتق رجالًا جُلداً يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك.

فقال الصّدِّيق: أي أبت، أنا أريد ما عند الله!.

سمع أبناؤه ذلك، فكان من أعظم الدروس أن يفهموا معنى القوة أين تكون، وممّن تُستمد، أمن المخلوقين أم من الخالق؟.

ثم يتعلمون أن الصّدق في العمل، لا يكون في حساب الإنسان للدنيا، وإنّما في حسابه للآخرة، لقد رأوا كيف يكون البعد عن النفاق والشهرة وكيف يكون الصّبر والصّدق، وكيف يتمحض العمل لوجه الله الكريم.

القوة والغنى والشهرة والسلطة والجاه كل ذلك قيم عند الناس لا تعلو عن دنياهم المادية، وكثرة المال والأتباع والسلطة.

ولكنه أراد أن يعلّم الناس بأن القوة والغنى والجاه في الفوز بمرضاة الله عزّ وجلّ.

الناس يركضون لجمع المال، واكتساب الشهرة، والسعي وراء المنصب، أما الصّدِّيق فكان من غير هذا الطراز.

ها هم أبناؤه يسمعون آيات الله تتلى وهي تصف أباهم: ﴿**فأما من أعطى واتّقى، وصدّق بالحسنى، فسنيسِّره لليسرى. وأما من بخل واستغنى، وكذّب بالحسنى، فسنيسِّره للعسرى**﴾[1]. فازدادوا يقيناً بأنّ هذا الذي يرونه هو الحق، وفي سبيله تهون التضحيات.

وتبلغ الأخلاق عنده درجة تؤثِّر في المشركين لذا فإن ابن الدغنة وهو على شركه يرى أبا بكر خارجاً من مكة بعد ما اشتد الأذى وهو يقصد الهجرة فيقول له: «إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم، وتحمل الكلّ، وتعين على نوائب الدهر، وتقري الضيف» ويطلب منه ألاّ يهاجر.

---

(١) قال ابن الجوزي: أجمعوا على أن هذه الآية نزلت في أبي بكر: ﴿**وسيجنبها الأتقى، الذي يؤتي ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى**﴾ وهذه الآيات والسابقة من سورة الليل.

وعندما انتشر الإسلام ودخل الناس فيه أفواجاً، وصار خليفة بعد رسول الله ﷺ، ظل على تواضعه وسمو خلقه، بل زاد خوفاً من الله وتواضعاً، حتى قالت أنيسة: «نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل أن يُستخلف، وسنةً بعد ما استُخلف، فكان جواري الحيّ يأتينَهُ بغنمهن فيحلبهن لهن».

يـالله، تـأتـي الجـواري بـالأغنـام إلـى خليفـة رسـول الله ﷺ ليحلبهن!! أيُّ طراز هذا من الرجال؟.

وكان من أكثر الناس حياء، والحياء من الإيمان، وهل يصلح مجتمع لا يتحلى بهذه الصفة؟.

والصّدِّيق الأب الشفوق، صاحب رسول الله ﷺ وخليفته من بعده يذكر ربه فيستحي، كيف لا وهو يتذكر عميم النعم، وكثرة العطايا، وأين المخلوق الضعيف المذنب من الخالق العظيم الغفار؟ قال للناس مرة وهو يخطب: «يا معشر الناس، استحيوا من الله، فوالذي نفسي بيده، إنّي لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء، مغطياً رأسي استحياءً من الله».

رضي الله عنك من أب صادقٍ في أبوّته، قدوةٍ في تربيته.

وما أكثر ما كانت أسماء وإخوانها يرونه باكياً خائفاً من الله، كلما زادت نِعَم الله عليه، زاد تقرُّباً وطاعة، كانت التقوى حلية تلازمه، والخوف لباساً يلبسه ليل نهار.

تقول ابنته عائشة أمّ المؤمنين: «كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكله منه أبو بكر، فقال الغلام: تدري ما هذا؟

قال أبو بكر: ما هو؟

قال الغلام: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية ـ وما أُحسن الكهانة ـ إلا أنّي خدعته، فلقيني فأعطاني هذا الذي أكلت منه. فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شيء في بطنه[1].

فكيف كان وقع ذلك عند أبنائه؟ وهل هناك أبلغ من درس الصّدِّيق لأبنائه في الخوف من الحرام، والبعد عن حرمات الله عزّ وجلّ.

كان ذلك لوناً من التربية في بيت الصّدِّيق رضي الله عنه.

وماذا كانت تسمع أسماء من أبيها في البيت؟ هل كانت تسمع الفحش، أو البذاءة، أو الكلمات الشاذة؟.

إذن أين الخوف من الله، والخوف من الحساب؟ جاء عمر فرأى أبا بكر وهو آخذ بلسانه يقول: «هذا الذي أوردني المورد»[2] كان يفعل ذلك وهو الصادق الودود، العفيف السمح، الذي لم يعرف منه أحد إساءة، ولكنه يؤدب لسانه، ويخشى عواقبه إن لم يتحرَّ الخير فيه، لأنه كان يخاف ربه، ويعلم أنه محاسب على كل كلمة وكل عمل، لقد بُشِّر بالجنة من رسول الله ﷺ، فزاده ذلك حباً في الطاعة وخوفاً من المعصية.

يقول معاذ بن جبل: دخل أبو بكر حائطاً، وإذ بدبسي في ظل شجرة فتنفس (أبو بكر) الصّعداء وقال: «طوبى لك يا طير! تأكل من

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه النسائي عن أسلم.

الشجر، وتستظل بالشجر، وتصير إلى غير حساب، يا ليت أبا بكر مثلك».

فكيف كان وقع ذلك عند أبنائه؟ ألا ينغرس الخوف من الله في أعماقهم؟ ألا تتراءى لهم النار وهي تحيط بالحشر، والحساب وما فيه من هول؟.

نعم كان ذلك، وسار الأبناء على خطى ذلك الأب المؤمن الشفوق.

وتفتح الدنيا أبوابها للصّديق وللمسلمين، ترى أسماء وتسمع وتشهد جيوش المسلمين تخرج بأمر الصّدِّيق لتدق أبواب كسرى وقيصر، وتتهادى أمامها الحصون، وترد على الخليفة البشائر والغنائم، ولكنّ بيت الصّدِّيق يظل كما كان، بيت المؤمن الذي يبني لآخرته. وانتهت أيامه في الدنيا واستعد للقاء ربه بعد أن وطَّد أركان الدولة الإسلامية، وينادي ابنته عائشة فيقول: «يا عائشة، انظري اللَّقْحة التي كنا نشرب من لبنها، والجفنة التي كنا نصطبح فيها، والقطيفة التي كنا نلبسها، فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين، فإذا مت فرديه إلى عمر»[1].

وتعلَّم أبناء الصّدِّيق درساً في المسؤولية، ومراقبة الله تعالى من حمل الأمانة وتعهد مصالح الناس، ويا ليت الحكام والمسؤولين يسمعون ذلك ويفهمون، لم يردهم الصّدِّيق خوفاً من حساب مالي، أو انقلاب أو تشهير، وإنما كان يخشى يوم الحساب، يخشى رب

---

(١) أخرجه الطبراني في مسنده عن الحسن بن علي بن أبي طالب.

العالمين، وكل ما عداه صغير الشأن، هيّن في حساب الصّدِّيق.

لم تكن وصيته تتعلق بأرصدة من الملايين، أو ألوان من القصور والممتلكات والشركات، إنما كان حول ناقة يغتذي من لبنها، وجفنة يأكل منها، وقطيفة يلبسها لقاء مسؤولية عظيمة أنتجت فتحاً عظيماً، ودولة قوية، وحضارة رائعة.

هذه وصيّة الصّدِّيق، صاحب رسول الله ﷺ وخليفته، قامع الردة، وفاتح الشام والعراق.

وترتجف عائشة أم المؤمنين، وترتجف أسماء، ويرتجف الأبناء إذ يرونه في هذه الصّورة المثلى، وتختلط مع دمائهم تلك الأخلاق السامية في صورتها العملية.

ولم يستطع الفاروق العادل، إلا أن يقف خاشعاً باكياً أمام هذه القمة السامقة فيقول: «رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك» ويزيد الصّدِّيق بياناً عما أخذ من أموال المسلمين فيخاطب عائشة:

«يا بنية، إنا ولينا أمر المسلمين، فلم نأخذ لنا ديناراً ولا درهماً ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عندنا من فيءٍ للمسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضج، وجُرْد هذه القطيفة، فإذا مِتُّ فابعثن بهن إلى عمر».

هذه الشفقة، وهذا الخلق الذي بدا به الصّدِّيق في تربيته لأولاده كان ثمرة من ثمار العقيدة، فإذا تعارض شيء من الحياة مع العقيدة، فكل شيء هيّن في سبيلها.

جلس الصّدِّيق مع أبنائه يوماً فقال له ابنه عبد الرحمٰن بعدما أسلم، وكان ذلك بعد بدر: «لقد أهدفت لي يوم بدر[1] فانصرفت عنك ولم أقتلك».

فعلَّمه الصّدِّيق درس العقيدة الأول فقال له: «لكنك لو أهدفت لي لم أنصرف عنك».

وعرف عبد الرحمٰن وإخوانه ميزان الوشائج والقربى حتى لا يلتبس أمر العقيدة عند الأبناء.

هذه اللمحات الخاطفة من سيرة الصّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ توضّح صورة البيت الذي نشأت فيه أسماء، والأسرة التي عاشت فيها.

إنها تعطينا رغم بساطتها أبعاد التربية الإسلامية التي تجلّت في بيت الصّدِّيق تأسِّياً برسول الله ﷺ، والتي كانت تتجلّى في بيوت المسلمين، بصورة أخرى.

إنه الإيمان الحقيقي الذي تجلّى في أروع صوره عند أبي بكر مع أسرته، وفي سلوكه وخلقه، وبين أبنائه وأحفاده، كما تجلّى في المجتمع أيضاً.

وإنها القدوة العملية للأبناء الذين يرون هذه المعاني في سلوك الأب المؤمن، ويتلقون دروس الإسلام حقائق وأحداثاً يعيشونها من الصّباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصّباح.

---

(١) وكان عبد الرحمٰن مع المشركين. وأهدفت: أشرفت وصرت هدفاً هيناً لي.

وإنه التطبيق الحقيقي للتربية الإسلامية التي تفتقدها الأسرة الإسلامية، فإذا توفر لها في هذا الإطار أو ذاك ارتفعت بالمجتمع كلّه إلى المجتمع المستخلف الذي يقيم شرع الله.

فلا غرابة أن يخرج من البيت المؤمن، بيت الصّدِّيق، أبناء بررة مؤمنون: أسماء، وعائشة، وعبد الرحمٰن، وعبد اللّه، ومحمد، وأم كلثوم[1]، فالصّدِّيق كان يقوم بمسؤولية الوالد الراعي، أمام أبنائه وأسرته لأنه يعرف أنّ الله عزّ وجلّ سيحاسبه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا، قوا أنفسكم وأهليكم ناراً، وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون**﴾[2].

وتتبع هذه الآية التي يخاطب الله عزّ وجلّ بها عباده المؤمنين، دعوة إلى التوبة، ودعاءً للنجاة من النار: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً، عسى ربكم أن يكفِّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، يوم لا يخزي الله النبيّ والذين معه، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا، واغفر لنا، إنك على كل شيء قدير**﴾[3].

«وهذا هو الطريق: توبة نصوح، توبة تنصح القلب وتخلصه ثم لا تغشه ولا تخدعه...

---

(١) انظر إلى الكتاب القيِّم عن «عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء العالمين» للأستاذ الفاضل الشيخ عبد الحميد طمهاز، جزاه الله كل خير.

(٢) سورة التحريم، الآيتان ٦ ـ ٧.

(٣) سورة التحريم، الآية ٨.

إنّ هذا الثواب ـ كذلك العقاب ـ كلاهما يصور تبعة المؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار، وإنالتهم هذا النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار..».

«وإنّ المؤمن مكلفٌ هداية أهله وإصلاح بيته، كما هو مكلّف هداية نفسه وإصلاح قلبه.

إن الإسلام دين أسرة، ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته وواجبه في بيته.

والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي؛ المجتمع الإسلامي.

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة، ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها، حصينة في ذاتها، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها، وإلا تكن كذلك، يسهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه، فلا يصعب على طارق ولا يستعصي على مهاجم، وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة ـ أول ما يتجه ـ إلى بيته وأهله، واجبه أن يؤمِّن هذه القلعة من داخلها، واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً. ولا بد من الأم المسلمة ـ فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة ـ لا بد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات، فعبثاً يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامي بمجموعة من الرجال، لا بد من النساء في هذا المجتمع فهنّ الحارسات على النشء الذي هو بذر المستقبل وثماره. ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء، وكان ينظم البيوت ويقيمها على

المنهج الإسلامي، وكان يحمِّل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً**﴾ هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعاة إلى الإسلام، وأن يدركوه جيداً، إن أوّل الجهد الذي ينبغي أن يوجّه إلى البيت؛ إلى الزوجة، إلى الأم، ثم إلى الأولاد وإلى الأهل بعامة، ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المرأة المسلمة لتنشئ البيت المسلم، وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة، وإلا فسيتأخر طويلاً بناء الجماعة الإسلامية، وسيظل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات»[1].

وهي مهمة شاقة وعسيرة، لا ينهض بها إلا المؤمنون الصّادقون، الذين لا تهمهم كل مظاهر الدنيا، ولا تغريهم طيباتها، لأنهم يخافون رب العباد.

وهذه المهمة ما تزال في زاوية مهملة عند الدعاة إلى الإسلام، إنهم قصروا في هذا الجانب أيّما تقصير، وكانوا بين إفراط وتفريط، بين من يرى في تربية البيت أوامر وقيوداً وزواجر، وبين من يظن رسالته إرضاءً للبيت، وتلبية لحاجات الزوجة، وتأميناً لحاجات الأولاد، وكلهم يحاول تبرير موقفه بنصٍّ دون أن يحاول فهم الصّورة الكلية للموضوع.

إن تربية الأسرة الإسلامية بحاجة إلى دراسة واعية وإعداد حكيم، يقوم على أساس الكتاب والسنَّة، وفهم سيرة رسول الله ﷺ، ودراسة النماذج الإسلامية الأولى بعيداً عن ردود الأفعال، أو التأثر

---

(١) «في ظلال القرآن»، ج ٨، سورة التحريم ٣٦١٩. وانظر كتاب «المرأة المسلمة الداعية» للمؤلف.

بالعادات والخضوع للأعراف التي قيَّدتنا بأخلاقٍ ليست من الإسلام.

وإن البيوت الإسلامية تعيش في كثير من جوانبها حياة المجتمع الجاهلي، وتخضع للعادات والأعراف الحديثة، وقليل أولئك الذين يدركون خطورة هذا الواقع.

لقد شغل المسلمون بما حولهم من ضرورات وأعمال في المجتمع، وبما هم فيه من جهاد لأعداء الإسلام، ونسوا إعداد البيوت التي هي الدرع والحصن الذي يتحصَّن به المسلمون.

لقد انهزم المسلمون حين انهزمت الأسرة، وأضحت الأسرة حديثة، لا تقوم على آداب الإسلام، وعقيدة المسلمين.

وتكوين الأسرة الإسلامية تكويناً صحيحاً هو الذي يهيِّئ المرأة لدورها ومسؤوليتها، فيجعلها تدرك أنها على ثغر من ثغور الإسلام، وتعرف رسالتها في الحياة.

حينذاك تعمل بوحي من إيمانها في تربية النشء تربية إسلامية حقيقية، دون الاهتمام بما في المجتمع من انحرافات، أو انشغال بالأزياء والأضواء والمغريات.

والحقيقة المرة هي أن بين دعاة الإسلام وبين بيوتهم هوة عظيمة، بل وأعظم منها ما بين هذه البيوت وبين الحياة الإسلامية. وإن قليلاً من العبادات، والمظاهر الإسلامية يقنعنا في كثير من الأوقات بأننا أدَّينا واجبنا نحو أُسَرنا، بينما تعيش نساؤنا وبناتنا وأبناؤنا مع الشارع والسوق والمجتمع الذي نعرف انحرافاته ونحارب مفاسده.

ويحبون ويبغضون، وينسجمون ويتآلفون معه في الأزياء والأغاني والعادات والأذواق، ولا نرى في ذلك بأساً، باسم المتعة الحلال، والتسلية البريئة، وحسن المعاملة مع المرأة. ومتى يدرك الدعاة أنهم ما زالوا عراة مكشوفين أمام الأعداء، وأن حصونهم ناقصة أو مهدمة، لأنهم تركوا العناية بالأسرة. إن البيوت الإسلامية هي القلاع المتينة التي تحمي ظهور المسلمين وتمدهم بالرجال، وتزودهم بالعزيمة.

وإن نظرة واحدة إلى نسائنا بالأمس ليجعلنا ندهش حقاً كيف وقفت أسماء ـ الأم ـ من ابنها عبد اللّه وهو يستشيرها في الخضوع لبني أمية.

وكيف وقفت نسيبة من أبنائها يوم أُحد، وماذا فعلت هي أيضاً، وكيف كان النسوة يدفعن الرجال للجهاد، وينشئن الأولاد على العقيدة، ويحبّبن الأبناء بالشهادة.

كانت النساء تستقبل الفارين بعمد الخيام والضرب! مَنْ مِن الرجال في هذه الأيام يستطيع أن يعطي مثلاً واحداً من هذه الأمثلة؟.

وأين المرأة التي تجد غاية سعادتها في بذل المال، وتقديم الشهداء والموت في سبيل الله؟.

هكذا كان الصّدِّيق في بيته، وهكذا نشأت أسماء في بيت مؤمن، على هدى الإيمان، وبأخلاق الإسلام.

# الدين الجديد

كانت قريش كبقية العرب تعبد الأوثان، وتقدس الأصنام، وتفعل المنكرات، وتفشّت العادات السيئة، وسيطرت العصبيات والثارات، وصار القوي هو السيد، والضعيف هو المستعبد المسود. ولعبت الأهواء بالعقول، وقادت الرجال إلى غاياتهم دون رادع.

وكانت أسماء ترى وتسمع ما يدور في أندية قريش، وما يثور بينها من مشكلات لتافه الأمور، رأت المظالم، ورأت الحروب، ورأت النزاعات.

ولكن أشد ما تأثرت من ذلك التفكير الأهوج الذي قاد بعض الرجال إلى وأد البنات وهنّ أحياء.

كانت تفكر في سبب معقول فلم تجد ذلك السبب، لماذا يئدون المولودة الصغيرة التي لا تملك من أمر الحياة شيئاً؟.

وتساءلت: هل يستطيعون أن يخلقوا شيئاً؟ بل هل يستطيعون تبديل شيء من خلق الله؟.

هل يرزقون أنفسهم؟ لا.

وتتوالى الأخبار بين فينة وأخرى عن موءودة جديدة، وصارت تقول: أليس لهذه الجرائم من نهاية؟.

وحين كانت تفكر في هذا الأمر، وترى رجالات قريش يتمسحون بالأصنام والأوثان لم تعجب كثيراً، إنها عادات تمسكوا بها ولم يفكروا في أمرها.

وذات يوم اتجهت صوب الكعبة وإذا بها تسمع صوتاً رزيناً يخاطب قريشاً، وحوله بعض شبابهم يقول لهم: «يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري»[1].

«اللهم لو أني أعلم أيَّ الوجوه أحب إليك عبدتك، ولكن لا أعلمه ثم يسجد على راحلته»[2].

فسألت: من هذا الشيخ الكبير الذي يتحدث عن دين إبراهيم، ويعظ قريشاً؟ فقالوا لها: إنه زيد بن عمرو بن نفيل.

ثم تزيد إصغاءً له وهو يدعو قريشاً إلى الفضائل وترك الآثام: «يا معشر قريش، إياكم والزنا، فإنه يورث الفقر»[3].

وكان هذا الشيخ الذي يخشى ربه، ويرى كيف جارت قريش وتركت دين الله، وعبدت من دونه أوثاناً لا تضر ولا تنفع، وراحت تصطنع لنفسها تقاليد وعادات ما أنزل الله بها من سلطان، كان على دين إبراهيم عليه السلام.

كانت بعض العشائر وبعض الرجالات يأخذون بناتهن

---

(١) من البخاري.

(٢) «مختصر السيرة» محمد بن عبد الوهاب.

(٣) «سير أعلام النبلاء» ١/ ٨٩، مطبوعات دار المعارف في سلسلة «ذخائر العرب».

المولودات فيدفنونهن وهنّ أحياء، لا تملكهم شفقة الأب وحنان الأهل، ولا يمنعهم خوف من رب العالمين، فإذا علم هذا الشيخ المؤمن بواحدة من هؤلاء البنات ذهب إلى وليِّها وقال له: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤونتها».

ويأخذها منه، فيرعاها، ويربيها حتى إذا ترعرعت وكبرت قال لأبيها: «إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها».

وأثر ذلك في أسماء، وصارت تفكر في أمر الأصنام وأمر العادات التي تعوَّدها الناس. الحروب تنشب بين الإخوة لأتفه الأسباب، المظالم تقوم بين الناس لأن القوي يفرض نفسه على الضعيف ويستكين المظلوم لأنه لا يجد النصر من الناس، المفاسد تسري بين الناس، فمن أين هذا كله؟.

هذا البيت العتيق يحج إليه الناس، وهذا مقام إبراهيم، والعرب كما تقول: على دين إبراهيم، فهل هذا دين إبراهيم؟

وبدأت تفكر فيما سمعته من هذا الشيخ الكبير: «والله ما منكم على دين إبراهيم غيري». إذن فدين إبراهيم غير ما نراه بين الناس، يا ليتني أعرف دين إبراهيم...».

مرت سنون والحياة هي الحياة في مكة، لم يطرأ جديد، غير ما تراه من تجارة تأتي، وربح يزيد، وأحاديث الشباب الذي يلهو. ولكن أباها الصّدِّيق كان يجلس أحياناً ليحدثها مع إخوانها عن العرب وعن أنسابها ويقص عليهم قصص الحروب والغزوات، والأشعار والندوات فيمتعهن بهذه القصص، ويزيدهن علماً بما سبقهن من تاريخ العرب، وكانت ترى سيرته تنأى عن فحش القول،

وفعل الخبائث، ويترفع عن اقتراف الفواحش أو الانغماس في الملذات كما يفعل الناس فتزداد إعجاباً به وحباً له، لا سيما حينما ترى سادة القوم يخرجون بعد أن تأخذ الخمرة ألبابهم في سفاهة ونذالة، ويقترفون من الرذائل ما يخجل الحيوان، فكيف يرضون بهذه المهانة؟.

نعم، إنه شيء سيِّئ، والعاقل من ابتعد عن ذلك وحفظ مروءته وكرامته، وأبوها كذلك.

وفي ذات يوم عاد أبوها إلى البيت وقد بدت عليه علامات التأثر، فهو بين الفرح والخوف، بين الحذر والأمل، ثم انتحى جانباً في البيت وراح يتأمل ويناجي.

استغربت أسماء هذا من أبيها، لقد كان يجلس معهم ويحدثهم، فما باله اليوم يؤثر الوحدة؟.

راحت تقترب منه وتسأله، لعل شيئاً جرى، فأهمّه وشغل فكره. وتبسَّم الصّدِّيق لابنته، وحدثها بما سمع.

لقد ظهر الحق يا بنية، وأراد الله بعباده خيراً، فأرسل لنا نبيًّا من بيننا بشيراً ونذيراً، وأمره بأن يدعو الناس إلى توحيده وعبادته، وعدم الشرك به، وترك عبادة الأصنام والأوثان وكل المعبودات من دونه لأنها لا تضر ولا تنفع، إنه الله سبحانه وتعالى يا أسماء: خالق الكون، المحيي والمميت، الرازق العليم الخبير، القوي القدير، الذي بعث أنبياءه آدم ونوحاً وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى عليهم السلام، إنه الله يا أسماء أرسل لنا نبيًّا ينقذنا ممّا نحن فيه، ويدلنا على الطريق المستقيم.

ولم تشأ أن تقاطع أباها الذي استرسل في إخبارها عن الدين الجديد، مع أنها كانت تزداد تلهُّفاً لمعرفة هذا الرجل الذي بعثه الله نبياً.

وما إن توقف أبوها برهة عن الحديث حتى بادرته بالسؤال:

ومن هو النبي الجديد يا أبتي؟

إنه «محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب» الذي عرفناه صادقاً أميناً عفيفاً شريفاً.

نعم إنه الأمين، زوج خديجة الذي تحدثت عن أخلاقه الرجال وتمنَّته لعفَّته وصدقه وشرفه النساء زوجاً لها.

ـ نعم يا أسماء، ولقد قرأ علينا شيئاً مما أوحى الله به إليه: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم﴾**.

ـ يا الله، إنه كلام لم نسمع مثله من قبل.

ـ وماذا أيضاً يا أبتاه؟

ولقد دعاني أوّل الناس، وحدثني بما أمره الله به، وتركني أفكر في أمر الإيمان والدخول في الدين الجديد.

ـ وماذا رأيت؟ وماذا قررت؟

ـ لم أنتظر يا بنية، وهل ينبغي لعاقل أن يتردد في الحق إذا وجده والخير إذا رآه، والفضائل إذا دعي إليها؟

إنه ما من فضيلة في الحياة إلاّ ودعا إليها، وما من رذيلة إلاّ ونهى عنها، وما من خير إلاّ وأمر به، وما من شر إلا وحذّر منه. فكيف أتردد؟

لقد آمنت به، وأسلمت لربّ العالمين.

ـ وكيف الدخول في الإسلام يا أبتاه؟

الدخول في الإسلام يكون بنطق الشهادتين!

أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ثم يطيع المسلم ربّه ونبيّه، ويعمل بما يوحي به الله لرسوله.

ـ أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنا على دين محمد أيضاً يا أبتاه.

ـ ما أبرّك وأحسنك يا أسماء، إنّك ابنة عاقلة، وامرأة ذكية، أرجو أن يبارك الله لك بحياتك وشبابك وأن يقبل عملك ويهديك صراطاً مستقيماً، ولا بد يا بنية من أن تبايعي رسول الله ﷺ أمامه.

ـ كما تريد يا أبتاه.

ومضت أسماء مع أبيها لتسلم أمام رسول الله ﷺ، وتبايعه على السّمع والطاعة لله ولرسوله، وكان إسلامها بعد سبعة عشر إنساناً ولم يكن سنّها آنذاك يتجاوز الرابعة عشرة من عمرها.

ثم أسلم بقية إخوتها ما عدا عبد الرحمٰن الذي بقي على شركه إلى ما بعد بدر ثم دخل في دين الله مسلماً صادقاً.

وعاشت مع المسلمين الأوائل حياة الصّبر والجهاد، والمحنة العظيمة، وتحمّلت الأذى، وصبرت على البأساء، ورأت ما يفعل المشركون بالمسلمين وما ينال أبوها من هذا الأذى.

كم مرة رأت طغاة قريش كأبي جهل وأمية بن خلف يجرّون

المستضعفين من المسلمين إلى رمضاء مكة وحولهم العبيد والصّبيان، ويذيقونهم أشد ألوان العذاب ليفتنوهم عن دينهم.

ولكنها ما أشد ما تزداد يقيناً وثباتاً حينما تسمع آيات الله تنزل على رسوله وتقرؤها مع المسلمين: ﴿**يا أيها المزمّل، قم الليل إلاّ قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً. إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً. إنّ ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً. إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً. واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً. رب المشرق والمغرب لا إلٰه إلا هو فاتخذه وكيلاً. واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً. وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهّلهم قليلاً. إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصّة وعذاباً أليماً**﴾ [المزمل].

وآيات وآيات، إنّها من رب العالمين، الذي يرعى عباده المؤمنين، إنه معهم في الليل والنهار، يعرف سرّهم وجهرهم، يعرف ما يفعل الظالمون وعنده الجزاء العدل.. ولن يخلف الله وعده.

ازدادات إيماناً وثقة وصلابة وهي ترى أباها ينفق في سبيل الله فيشتري الضّعفاء الذين يُفتنون في سبيل الله، ويعتق العبيد الذين أسلموا لله.

وتراه وقد أصبح هذا الدين همّه في الليل والنّهار لا يمر يوم دون أن يرى رسول الله ﷺ، ويسمع منه كلام ربّ العالمين.

وفي ذات يوم جاء الصّدِّيق ليخبرها بما فعل أبو جهل بياسر وسمية وكيف وقف العجوز المؤمن شامخاً بعزّة المسلم، وثقة المؤمن أمام جبروت الطاغية فلم يرجع عن دينه.

وكيف وقفت سمية المؤمنة تردُّ على أبي جهل برباطة جأش وطمأنينة نفس، وهي تردد كلمات الشهادتين، فيزداد غيظاً حتى يرتكب ما تأنف الوحوش من ارتكابه فيطعنها بحربة في قبلها فتموت شهيدة وتمضي إلى ربّها مع زوجها شهيدين، بل أوّل شهيدين في الإسلام بعد أن بشَّرهما رسول الله ﷺ بالجنّة. فعلمت أسماء آنذاك أن عليها وعلى بقية النساء مسؤولية عظيمة ينبغي أن تقوم بها، فنهضت وهي تتمتم «رحمك الله يا أختاه، وأسكنك فسيح جناته، وإنا على درب الإسلام سنسير بإذن الله».

obeikandl.com

# الزوج المؤمن

كان المسلمون في مكة يجاهدون طغيان الجاهلية، وينشرون عقيدة التوحيد، فينالهم أذى كثير، ويلقون الصّعاب الشديدة، ولكنهم صبروا على المحنة والأذى، وما زادتهم إلا ثباتاً على الحق وثقة بالله العزيز الحميد، ومضوا في سبيلهم يبشّرون بدين الله، ويبلّغون الناس عقيدة التوحيد.

كانوا كالجسد الواحد، مجتمعاً يتشكل وسط المجتمع الجاهلي، وأمة تتربى على النهج القرآني، وبيد سيد العالمين وإمام المربّين رسول الله ﷺ، لذلك كانوا يتعاونون كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، عرباً وعجماً، أحراراً وعبيداً على طاعة الله، وحمل دعوته، بعد أن جمعتهم العقيدة، ووحّدهم أمر الله فأصبحوا في دين الله إخواناً، وكلّما أشرقت شمس ليوم جديد، تعمقت جذور الإيمان في الأرض، وازدادت ثمار الإنسان وظللت أناساً جدداً.

لم تعد روابط الجاهلية هي التي تربطهم بالمجتمع الجاهلي، بل حلت العقيدة والدين الجديد بدلاً من ذلك، وأصبحت رابطة الدين هي الأقوى بل هي الوحيدة آنذاك. كان شبابهم يمتلئون إيماناً وحماساً للإسلام، فهم يحملون راية الدعوة، ويصبرون على أذى قريش، ويعانون من قطيعة الأهل وظلم ذوي القرابة وإيذاء العشيرة.

ومع هذه الصّعاب، ورغم هذا الحصار، ظل المجتمع الإسلامي يتكاثر ويتسع وبدأت الأُسَر الإسلامية تزداد وتتوالد، وأحسّت قريش بأن أمر الإسلام إلى ازدياد، وأن أبناءهم يدخلون فيه واحداً إثر آخر.

ونظر المسلمون إلى ذوي قرابتهم من الجاهليين، فإذا بهم لا يرعون في أبنائهم من المسلمين إلاً ولا ذمة، ولا يأبهون لمودة وقرابة، فلماذا يودّون إذاً ممن حادَّ الله ورسوله.

ها هو أبو لهب ـ الطاغية الخاسر ـ يأمر ابنيه أن يطلقا ابنتي رسول الله ﷺ، وظن أنه يكيد محمداً في ذلك، لأنه لا يعرف رعاية الله لأوليائه، فأبدلهن الله أزواجاً خيراً من أزواجهن، وأكرمهن برجال أفضل من رجالهن.

وأصبح من لوازم الإيمان إذاً أن يرعى المسلم مجتمعه، فلا يعطي ولاءه إلاّ لهذا المجتمع المؤمن، ولا يربط وشائجه إلا بالإخوة من أبناء الدعوة.

وهكذا بدأ المسلمون في بناء المجتمع وتكوين الأسر الإسلامية الجديدة.

كان الصّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنقياء أتقياء لا يبتغون من الدنيا إلاّ مرضاة الله عزّ وجلّ، ولذا ساروا على نهجه، ورموا بتقاليد الباطل إلى جهنّم وبئس المصير.

ها هو الصّدِّيق رضي الله عنه واحد من الذين تتحول العقيدة عنده إلى حياة، والدين إلى سلوك وأخلاق، والشريعة إلى أعمال

وتعامل، وتحولت أسرته كلها من الجاهلية إلى الإسلام.

لقد أعطى قلبه وفكره وماله ووقته لله، فما خسر من ذلك شيئاً، بل ربح أشياء وأشياء، كان له في الدنيا ما عجز أهل الأرض من طلاّب الدنيا أن يصلوا إلى بعضه، وكان له في الدنيا ذلك المقام الأسنى، والرضوان الرحيم. فماذا بعد هذا النجاح؟.

كان له أبناء وبنات، أسلموا جميعاً، وانخرطوا في الدعوة يقتدون بأبيهم الصّدِّيق الوفي.

وكان له من البنات: أسماء وعائشة ـ وكلاهما ـ ذات فضل وسبق وجمال، وها هي أسماء تبلغ سن الصّبا، ويزيدها الإيمان حيوية ونضارة ويكسوها بالخلق الرضي، والحياء الجميل، فتزداد مع الصبا ألقاً ووضاءة وصفاء. أما عائشة فقد كانت أصغر من أسماء بعشر سنين[1]، ولكنها كانت تتمتع بحيوية لا مثيل لها، وذكاء قلَّما عرفت به النساء. وحسبها فضلاً أنّ الله عزّ وجلّ زوَّجها لنبيه ﷺ[2].

وكانت الأختان المؤمنتان الصّدِّيقتان تتابعان أحداث الدعوة، وتشاهدان في كل يوم ما يجري في شعاب مكة وطرقاتها، من إيذاء للمسلمين، وكيد للمستضعفين، واستهزاء برسول الله ﷺ، وصدٍّ عن دين الله عزّ وجلّ.

---

(١) يقال: إنها ولدت سنة ٢٧ قبل الهجرة وقبل مبعث النبي ﷺ بعشر سنين، وهي شقيقة عبد اللّه بن أبي بكر («أعلام النساء» ١/ ٤٧)، (تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر)، جزء «تراجم النساء» ١٠.

(٢) انظر إلى كتاب «عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء العالمين» للأستاذ الشيخ عبد الحميد طهماز حفظه الله، فهو كتاب جيد يتحدث عن عائشة حديثاً طيباً ويعطي صورة صادقة.

ولكنّهما تريان ذلك الثبات العجيب من القلة المؤمنة في مكة، والأمثلة النادرة التي يضربها أولئك البسطاء من النساء والرجال، من الشباب والكهول، الصدِّيق، وبلال، وياسر، وسمية، وصهيب، وعلي، والزبير، وغيرهم كثير.

كانوا بإيمانهم أرسخ من جبال مكة، لا يأبهون للأذى، ولا يثنيهم الظلم والتعذيب والتسفيه عن متابعة الدعوة.

كان الرجال من المؤمنين ـ كل الرجال صغيرهم وكبيرهم ـ مشغولين بهذه المعركة العقديّة بينهم وبين المشركين، لم يكن هناك قتال، ولكن المعركة أصعب من القتال، يؤذيهم الجاهليون فلا يردون الأذى، يسفهونهم فلا يملكون إلاّ الصّبر، يحرمون من حقهم في المال والنشاط والكسب فلا يشكون إلا لله رب العالمين. هكذا كانوا يلتزمون بموقف الدعوة لأن الله عزّ وجلّ أمرهم بالصّبر، ولم يأذن لهم بقتال.

كانت عندهم شجاعة لا يملكها غيرهم، ولديهم تضحية لا تفوقها تضحية، ولكنه أمر الله، والفلاح في هذا الأمر، والطريق هو الصّبر حتى يأذن الله بالنصر.

لقد أثمر الإيمان في حياتهم عملاً وبناءً، وتحولت آيات القرآن الكريم إلى سلوك وأخلاق وحياة، وحمل الرجال والنساء أوامر ربهم، وهم يتبلغونها من رسولهم، لتتحول إلى كيان اجتماعي جديد يبدأ من الفرد، ويمر بالأسرة، وينتهي بالمجتمع المتكامل مجتمع العقيدة، وأمة الدين الجديد.

بدأت البيوت الجديدة تنهض وتقوم على شريعة الله، كما

بدأت بيوت المشركين تتفسخ، أو تتوزع وتندثر، وبدأ الشباب الإسلامي، شباب الدعوة، يبني البيوت الإسلامية، ويتزوج من المسلمات الصادقات ليمدوا حياة الدعوة بجيل إيماني جديد.

الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ شاب يتوقد إيماناً وحماسة، كان نسيجاً خالصاً من الشجاعة النادرة، والفروسية الرائعة.

ورغم أنه كان ذا نسب، ولكن لم يكن يفخر بالنسب، فهو ابن الدعوة، وحواري رسول الله ﷺ.

أبوه: هو العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشي، الأسدي.

وأمه: صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ وشقيقة حمزة بن عبد المطلب. مات عنه أبوه صغيراً، وربَّته أمه تربية قاسية، كانت تريد من ابنها أن يكون رجلاً شجاعاً منذ صغره.

أسلم وهو صغير بعد أن سمع بالدين الجديد، فجاء إليه عمه نوفل وأقرب الناس إليه ينهاه ويحذره، وينذره ليعود إلى الكفر ويترك دين الله، فأبى الزبير ذلك، وأصر على متابعة محمد ﷺ، ولم يأبه لتحذير عمه ووعيده، فإذا به يأخذه، ويربطه ويحبسه، بل ويتفنن في تعذيبه وتسفيهه، فيأتي بحصير فيلفه فيه ويربطه عليه ويعلقه، ثم يشعل النار تحته، ليتصاعد اللهب والشرار والدخان عليه فيؤذيه، ويحرقه ويعذبه، ويطلب منه وهو على هذه الحال أن يكفر بمحمد وبدين محمد، فيزداد الزبير إيماناً، ويجيب عمه بإصرار: لا أكفر أبداً.

ويملّ عمه من التعذيب، ويبوء بالفشل، وينتصر الفتى المؤمن

بإيمانه على طغيان عمه والمشركين جميعاً.

ولا غرابة، فعمته خديجة زوجة رسول الله ﷺ، تلك الطاهرة المطهرة التي وقفت مع الإسلام وقفة شهدت لها الدنيا بها، ونالت عند الله أعظم ما نالته امرأة من نساء العالمين.

وكانت أمه صفية امرأة شديدة، رأت في ابنها عزاءً لها عن زوج فقدته، وحياة صعبة قاسية، لا سيما وأن علائم الرجولة والشجاعة كانت بادية على ابنها منذ صغره.

ولكن ذلك لم يمنعها أن تضربه، وتغلظ عليه ـ وهو صغير ـ وتأبى عليه اللين، أو المهادنة حتى عاتبها عمه نوفل في ذلك وقال لها: ما هكذا يُضرب الولد، إنك لتضربينه ضرب مُبغضة.

فأجابته بأبيات من الرجز وقالت:

من قال إني أبغضه فقد كذبْ وإنما أضربه لكي
ويهزم الجيش ويأتي بالسلب ولا يكن لماله خبأ مخب
يأكل في البيت من تمر وحب

فراح نوفل يشكو صفية لعشيرتها ويقول: «يا بني هاشم، ألا تزجرونها عني».

وأم كهذه: صلابة ووعياً، جديرة بأن تربي ابنها تربية الرجال الأبطال، كانت تريده كذلك، فلم تأخذها العاطفة، ولم يمل بها الحنان إلى الإهمال واللين حتى يكون ابنها كسيراً ضعيفاً، تميل به الشهوة عن المكارم، وتأخذه نعومة العيش فيضعف عن الحق.

لقد تربى الزبير تربية الرجال الشجعان الأشداء، كانت مدرسة

أمه أول مدرسة يتمرس فيها على حياة الرجال، ثم كانت بعد ذلك مدرسة الإسلام، يأخذ منها ويتربى على يدي رسول الله ﷺ حتى أضحى واحداً من أعلام الصّحابة، من الذروة الذروة ـ العشرة المبشَّرين بالجنة ـ في الإيمان والشجاعة، والبذل والصّدق والفضل.

يأتي الزبير إلى أخيه الصّدِّيق ليطلب ابنته أسماء لتكون زوجاً له، لعله يبني أسرة جديدة من أسر الإيمان.

ولم يتردد الصّدِّيق، ولم ينتظر إلا ما ينبغي أن يكون من الانتظار ليستشير ابنته، ويطمئن إلى موافقتها أيضاً.

كان الصّدِّيق تاجراً غنياً، يعرف أمر الجاهلية وتقاليدها، ويعرف ما كانت تقيمه من الاعتبارات المادية، واعتبارات النسب، ولكنه الإسلام، ودين الله، هو الطريق، وهو المنهج، والزبير ابن الإسلام، بطل من أبطاله، واحد من الفدائيين الذين باعوا أنفسهم لله حباً في مرضاته، فكيف لا يجيبه؟.

لم يكن الزبير غنياً، بل كان فقيراً لا يملك شيئاً من متاع الدنيا، إلا البيت الذي يسكنه، والفرس التي يركبها، والسيف الذي يحمله، والثوب الذي يلبسه.

الجاهلية تقول: لا يصلح الزبير لأسماء، هو الفقير اليتيم، وهي ابنة التاجر الغني الثري.

ذاك الشديد الخشن، وهي ابنة البيت المُنعّم، التي تتوفر لها أطايب الطعام، وأنواع الخدمة، وشتى الرغبات.

ولكن الجاهلية رجس وضلال، وقيمها باطل وظلام وإلى

زوال، الرب الرحيم هو المنعم، والسبق عنده وحده: بالإيمان والتقوى، وكل مكرمة لا يعرفها دين الله فهي مذمة.

الشيطان يصرخ بالإنسان أن يلزم أمر الجاهلية، يتحالف مع الرغبات والشهوات، ويثير في النفس ألف هوى.

وأسرع الصّدِّيق في إعلان قبوله للزبير زوجاً لابنته أسماء، بعد أن استشارها فرضيت، وأعلمها عن صفاته ومزاياه فقبلت.

بل ذكر لها أن الزبير هذا حواري[1] رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبي حوارياً، وحواريَّ الزبير**»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «**الزبير هو ابن عمتي، وحواريّ من أمتي**»[3]. وهو ممن قال له رسول الله ﷺ: «**فداك أبي وأمي؟**».

كان يذكّر ابنته بأمر الجاهلية وأمر الإسلام، لتكون على هدى وبيان:

يا بنية، إن الإسلام علَّمنا أن قيمة الرجل في دينه وتقواه وخلقه، لا في ماله ونسبه. ألا ترين كيف رفع الإسلام بلالاً، وصهيباً وابن مسعود[4].

---

(١) الحواري: قيل في تفسيره: الناصر، والخالص، والخليل، والوزير، والذي يصلح للخلافة، والخاصة من الأصحاب. وحواري الرجل: صفوته وصاحب سره («فضائل الصّحابة» ١١٤).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والحاكم والنسائي.

(٣) أخرجه أحمد وابن عساكر والنسائي في «الفضائل».

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وابن عدي والبيهقي، وهو من الأحاديث الصحيحة.

والزبير يا بنية، مؤمن تقي، ومسلم صادق، حسن الخلق، طيب النفس، كريم المنبت، شجاع جسور، لا يخشى في الله لومة لائم، ولكنه لا مال له ولا متاع.

ورضيت أسماء بالزبير زوجاً، ورضي الصّدِّيق به نسيباً وصهراً، وقامت أسرة إسلامية جديدة على كتاب الله وسنَّة رسوله.

لم تكن هناك حفلات جاهلية، ولا تقاليد باطلة، كان زواجاً إسلامياً، فيه البساطة وفيه التقوى والمحبة، وفيه التيسير على الزوج، والعون للبيت الجديد.

ولم يشترط الصّدِّيق لابنته التي عاشت مترفة عنده شروطاً مادية ولا غيرها، ما دام الشرط الذي ارتضاه رسول الله ﷺ قد توفر بالزبير، ولم يحمِّل ابنته أسماء أعباء نفسية، فيشيعها إلى بيتها الجديد بالهدايا الثمينة، والجواهر الكثيرة، والمظاهر المترفة حتى إذا ما انقضى وقت الزفاف، وعادت الحياة إلى طبيعتها، بدأت تعاني المرأة من قساوة الحياة، وشدة المفارقات بين ما كانت عليه وما صارت إليه، لا لم يكن زواج الزبير بأسماء مظاهر وتقاليد، وإنما كان زواج المؤمنين الأتقياء، يرعى حرمات الله، ويحفظ زوجته بحفظه للإسلام، يخشى ربه فتأخذ منه كل حقها، ويلتزم أمر الله، فتنال الزوجة كل ما ينبغي لها من التكريم والحق والمحبة والوفاء.

وكانت أسماء وفية محبة لزوجها، تحب أن تسمع عنه ما يزيدها إعجاباً به وحباً له، كيف لا وقد أضحت منذ اليوم زوجه وأقرب الناس له.

قال لها أبوها وهو يحدّثها عن زوجها: كان الزبير غلاماً، فتخاصم مع رجل كبير وقوي، فكسر يده، فمرَّ الرجل محمولاً على أمه صفية، فسألته عن ابنها، فقيل لها: كسر يد الرجل بعد أن تقاتلا. فقالت للرجل: كيف رأيت زبراً، أقِطاً وتمراً، أو مُشْمِعلاً صَقْرا[1].

وسكت الرجل، فكيف يجيب وقد خبر الزبير وهو صبي آنذاك، وهل يطلب حقاً من صغير ألا يستحي؟.

هذا في الجاهلية.

أما بعد أن أسلم فقد كان أخلص النّاس وأثبتهم على دينه، وأشجعهم وأسرعهم في نصرة الحق، كان أوّل من سلَّ سيفه في سبيل الله.

لقد سمع مرة نفحة من نفحات الشيطان تقول: أُخذ رسول الله ﷺ، فخرج الزبير يشق الناس بسيفه، والنبي ﷺ بأعلى مكة، فلقيه وقال: ما لك يا زبير؟ قال: أُخبرت أنك أُخِذت. فصلى عليه ودعا له ولسيفه[2].

هذه بعض مزاياه يا ابنتي، فليبارك الله زواجكما وليجمع بينكما على خير. فأجابت أسارير أسماء كلها بالرضى والفرح والقبول.

---

(١) أخرجه البخاري. زبراً: تصغير الزبير، وهو اسم للأسد. الأقط: لبن مجفف يابس مُسْتَحْجِر يُطبخ به. المُشْمَعِل: السريع الماضي.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٣/ ٣٦٠ ـ ٣٦١، و«در السحابة في مناقب القرابة والصحابة» للشوكاني ٢٤١. وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٨٩ من طريق الإمام أحمد، ورجاله ثقات، و«سير أعلام النبلاء» ١/ ٤٢.

تزوجت أسماء المسلمة التقية البرة، من الزبير بن العوام فارس المسلمين وبطل الزحوف، وحواري رسول الله ﷺ، وانتقلت من بيت أبيها إلى بيتها المتواضع البسيط، ولم تحمل معها أحلام الغانيات المترفات في حياة الرغد وبسطة العيش وزينة الحياة، بل كانت تفكر في مستقبل الإسلام ومصير الدعوة. كانت تدرك أنها وزوجها في معركة مع الجاهلية والشرك، وأنهما في جهاد لا ينقطع حتى تعلو كلمة الله، وتخفق راية التوحيد فوق العالمين، ولا بد لآمال كهذه أن ينقطع لها صاحبها من دون كل الرغبات، يعطيها الصّدق والثبات والتضحية حتى تتحقق، وكانت تريد من بيتها الجديد أن يكون إسلامياً في كل شيء في مظهره وحقيقته، وأن يكون لبنة في بناء المجتمع الإسلامي الجديد.

وها هي تصف لنا حياتها البسيطة، وبيتها المتواضع، ومسؤوليتها في البيت فتقول:

«تزوَّجني الزبير، وما له في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه، وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن الخبز، فكان يخبز جاراتٍ لي من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير ـ التي أقطعه رسول الله ﷺ ـ على رأسي وهي على ثلثي فرسخ».

كانت يومها ابنة عشرين سنة، وكان زوجها يقارب السابعة والعشرين، والدعوة في أدق مراحلها بمكة حيث احتدم الصراع، واشتدت الخصومة وراحت قريش تقطع السبل، وتضيق الحياة على

المسلمين حتى لا تنتقل الدعوة إلى بلد جديد، وحتى لا يعتنق هذا الدين أناس جدد، ولكن المسلمين كانوا ـ بإيمانهم ـ أقوى من هذا الطغيان، وأثبت من الطوفان، لذلك صبروا، وهاجر بعضهم إلى الحبشة ـ وكان الزبير من بينهم، ثم عاد إلى مكة ولم يهاجر إليها مرة أخرى ـ ولم يكن له مورد إلا ما يكسبه من التجارة.

وواصل الدعوة، حيث كانت أول أمور حياته مع زوجته هي الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، كان ينهض ليلتقي برسول الله ﷺ بدار الأرقم، فيتعلّم منه شرع الله، ويسمع ما ينزل من الآيات، ويصغي إلى حديثه ـ ﷺ ـ في بسط أمر الدين، ورسم منهج الحياة الجديدة، ثم يمضي ليؤدي واجبه مع إخوانه في انسجام ودقة وإخلاص وجد، كان واحداً من الدعاة إلى الله عزّ وجلّ. كما كانت زوجته واحدة من الداعيات إلى الله عز وجل، يقوم منذ الصّباح ليؤدي ما يكلّف به من رسول الله ﷺ، يتصل بهذا، ويتحادث مع ذاك، ويدعو الثالث ويصغي إلى أراجيف قريش. ثم يعود إلى قائده ليبلغه ما أدى من عمل، وما عرف من أمور، ويسمع منه الإرشاد، ويتلقى منه التوجيه.

أما أسماء فكانت أيضاً تقوم بكل أمور البيت، تهيِّئ الماء والشراب لزوجها، وتصلح الثياب، وتعلف الدواب، وتعتني بالفرس والسلال، وتلتقي بأترابها فتحدثهن عن الدين الجديد، وتسمع منهن ما يدور في البيوت عن الإسلام والمسلمين، وتتعرَّف منهن على أصداء الدعوة، وردود الجاهلين ومخططاتهم، ثم تنقل هذا كله لزوجها الزبير، وينقل بدوره ذلك إلى رسول الله ﷺ.

كان هذا البيت واحداً من البيوت الإسلامية التي أعطت ولاءها لربّ العالمين، وباعت كل ما تملك من نفس ومال ووقت لله عزّ وجلّ. إنّ هذه الأسرة تعيش حياة الدعوة، وتقوم بواجبها خير قيام، فهي أسرة إسلامية، أسرة ربطت مصيرها بهذا الدين ما دامت تؤمن بالله ورسوله وتؤمن بالحساب، لذلك ليس لها ـ وهي تدرك معنى الإيمان ـ إلا أن تعيش مع هذه المرحلة المهمة من الدعوة بسلوكها وطاقاتها، يشترك في ذلك الرجل ـ الزبير ـ والمرأة ـ أسماء ـ ولم تكن حياة هذه الأسرة الشابة، حياة المطالب والرغبات، ولم يكن بيت الزوجية بيت المتعة والملذات، فهذا أمر تتوفر كل أسبابه ما دام في النفس طمأنينة وصفاء، وما دام في القلب يقين ووفاء وهل هناك طمأنينة وصفاء، ويقين ووفاء أكثر مما هو في قلب المسلم المستيقن، الواثق بربه، المستسلم لقضائه. فالبحث عن اللذة والمتعة والرغبات ليس غاية، إنه وسيلة وكفى، والمسلم ينال ذلك هانئاً سعيداً، والبيت المسلم يعيش حياة هانئة مطمئنة ما دام صادقاً في إيمانه صادقاً في ولائه لربه عزّ وجلّ ولدينه العظيم.

كانت لذائذ العيش عند الزبير وأسماء ـ كما هي عند بقية الصّحابة ـ تتلخص في أمر كلي هام: الوصول إلى مرضاة الله، في ذلك تلتقي الرغبات وتتوافق الإرادات، وتتوحد المشاعر، ويتعاون الزوجان.

يقومان بواجبهما في سبيل الله بدون تأخر أو تردد.

يؤدي الزبير ما عليه نحو ربه ودعوته ثم نحو بيته وزوجته، لأن ذلك من أمر دعوته، ومقتضيات إيمانه.

لا ترضي أسماء زوجها لأنها تريد الظفر بحبه وإعجابه في مرحلة تتأجج فيها العواطف وترق المشاعر فقط.

ولا يرضي الزبير زوجته لهذا الأمر ولغيره.

إنها أمور تأتي بشكل سهل وهيّن حين يؤديان ما يؤديان لأن مرضاة الله وطاعة الله تقتضي ذلك.

كل الواجبات الصغيرة والكبيرة تنتظم في مطلب كبير وعظيم هو طاعة الله ومرضاته، ولهذا تستعذب أسماء التعب والصّعاب، ما دام ذلك يكسبها الغاية العظمى عند الله.

وكذلك يفعل الزبير، وكل الأزواج الذين يؤمنون بالله، ويستقيمون على أمر الإسلام.

لهذا لم تكن أسماء عبئاً على الزبير في أوّل الزواج ولا في أي وقت من الأوقات بما لها من مطالب دنيوية، ورغبات ذاتية، لأنها لم تطلب الدنيا للمتعة ولم تحرص على أمر يتعارض مع واجباتهما نحو الدعوة، وفي تلك المرحلة المهمّة، وكذلك لم تطلب من زوجها أن يكون لها وحدها يستجيب لمطالبها، ويحقق رغباتها، ويسعى لتوفير السعادة لها ـ كما تتصورها النساء ـ حتى ينقطع لها، ويقوم على خدمتها.

بل كانت هي في خدمة الزوج، تسعده وترضيه، مع أنها ابنة الصّدِّيق الذي وفّر لها الخدمة والحاجة قبل الزواج.

إنها تقوم بخدمة الزوج، وتهيئة كل دواعي رضاه لأن ذلك جزء من واجباتهما نحو الدعوة، فضلًا عن نسبه ومكانته من رسول الله ﷺ،

وهو على ثغر خارج البيت، وهي على ثغر داخل البيت وهذه هي القسمة العادلة.

لقد دفعت به إلى العمل الجهادي في سبيل الله حينما هيأت الخدمة الصّحيحة والطمأنينة الحقيقية، والسعادة الوارفة، فكانت له سنداً ونصيراً وحصناً وملاذاً وظلًا ناعماً أميناً.

كان البيت واحة من الحنان، يستظل بها، ويطمئن إليها بعدما يضنيه السير ويتعبه صد الطغاة، وقسوة المفسدين في الأرض، والمشركين بالله. وحين يحس بالتعب يعود إلى واحته الظليلة، فإذا به يهنأ بنعيمها ويرى ضياء الحياة فيها، فتشحن عزيمته بمدد جديد، ويندفع مرة أخرى وهو أكثر إصراراً وثقة، لأنه نفض عن كاهله التعب، ولقي لمسة حنان ووفاء، فعاد للجهاد قوي العزيمة صادق النية.

هكذا كانت أسرة الزبير وأسماء ـ رضي الله عنهما ـ وهكذا كانت الأسرة الإسلامية أسرة الدعوة والجهاد.

فأين تقف اليوم الأسرة الإسلامية من دعوتها؟

أين يقف الرجل المسلم من دعوته، وماذا يعطي لها وما هي روابط أسرته بهذه الدعوة؟

وأين تقف المرأة من الدعوة وماذا تعطي لها؟

هل هي مع رجلها في دعوته، تمده الطمأنينة، وتشحنه بالعزيمة، وتهيِّئ له كل أسباب المضاء والصدق والثقة؟

أم أنها تقف عقبة صعبة من العقبات التي تعيق الطريق، وتشده إلى الأرض وتميل به عن الجادة؟

إنها أسئلة ترد في خاطر كل مسلم، ولا بد لها من أجوبة، وإن الأجوبة لا تحتاج إلى كثير من التفكير بقدر ما تحتاج إلى كثير من الصّدق والعزم.

لا يستطيع المسلم أن يبني مجتمعه من أسر لا تأنس إلا بالجاهلية وتقاليدها.

ولا يستطيع المسلم أن يربّي جيلاً من أسر لا تفهم أن حياتها هشيم ونكال إن لم تعطِ كل ولائها لله عزّ وجلّ.

وهذا ما يحتاج إلى العزيمة ويحتاج إلى الصّدق.

مضت شهور قليلة كانت تزداد فيها المعارك المستترة ضراوة بين المسلمين والمشركين، لا سيما بعد ما علمت قريش بما جرى في العقبة بين وفد من أهل المدينة، ورسول الله ﷺ، ونظرت إلى هذا الأمر بأنه أكبر خطر يتهددها منذ اليوم، بينما استبشر المسلمون بنصر الله، وبدأوا ينظرون إلى الموطن الجديد بأمل وثقة، ويستطلعون أخبار الدعوة هناك، فإذا بمصعب بن عمير ـ الذي أرسله رسول الله ﷺ داعية إلى المدينة مع وفد الأنصار ـ يرسل بالأخبار والبشريات إلى المسلمين في مكة، وينبئهم عن مسيرة الدعوة في المدينة، ودخول أعداد كبيرة بالدين الجديد.

بينما كانت قريش تترصد حركة رسول الله ﷺ والمسلمين، فتهتز أوصالها، ويتأجّج حقدها كلما علمت بنبأ جديد، أو إسلام واحد من أهل المدينة.

وعندما اقترب موسم الحج، تناقل المسلمون في مكة نبأ قدوم

مصعب بن عمير إلى مكة ليقابل رسول الله ﷺ مع صحب من الأنصار الجدد، وظل الأمر في غاية الكتمان والسرية كما أراده رسول الله ﷺ، حتى لا تستطيع قريش المكيدة لهؤلاء. وتفرق المسلمون بين وفود القبائل القادمة للحج، وتنقَّل رسول الله ﷺ بينها يدعوها للإسلام، ولكن قريشاً لم تتركه يبلّغ أمر ربه دون مكر، بل أرسلت عمه أبا لهب وغيره من طغاتها لتتبع رسول الله ﷺ وتسفيه رأيه، فإذا تكلم إلى وفد من الوفود كان يقول لهم: «**يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والله تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدِّقوا بي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به**».

فيتبعه أبو لهب ويقول لهم: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعُزى من أعناقكم، وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه.

ولكن ذلك لم يفتّ في عضده ﷺ، ولم تستطع قريش المشركة أن تمنعه من الدعوة. رغم حصارها وكيدها، وشدة مراقبتها، كان يقوم من الليل ليدعو الناس وليلتقي بالوفود، ويتحين الفرص ليفلت من مراقبتها له.

ومضى الموسم، وعلم المسلمون باللقاء العظيم الذي جرى بين رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس وبين وفد من المدينة، وما أعقبه من بيعة أكثر من سبعين رجلاً وامرأتين، واختيار النقباء منهم لمواصلة الدعوة ونصرة الإسلام في المدينة، فاستبشروا واطمأنوا إلى وعد الله عزّ وجلّ.

لقد أيقنوا أنّ الله عزّ وجلّ ناصر دينه إذا أخلصوا بها ـ سبحانه وتعالى ـ وصدقوا النية والعمل، فزادهم ذلك نشاطاً وجداً، وجاءهم أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة فُرادى، وسراً، فإذا بقريش تتلقى النذير من الشيطان الذي صرخ بهم ليدلهم على الخطر الجديد، فراحوا يستطلعون الخبر، ولكن أمر الله قد تمّ وعاد أهل المدينة إلى بلدهم، ولم يستطيعوا الكيد للمسلمين منهم.

لقد اشتد الجدل واللغط بين قريش، وبدأت الاجتماعات والمؤتمرات تتوالى بين الزعماء لتقرر شيئاً بشأن النبي ﷺ.

بينما مضى المسلمون في طريقهم، وصبروا على الأذى، وثبتوا على الطريق، وإذا بقريش تنقضّ على الضعفاء من المسلمين، وعلى الأبناء ممن آمنوا بالله ورسوله، فيكيدون لهم بالتعذيب، ويحبسونهم ويمنعونهم من الهجرة، ويحرمونهم من الطعام، ومع ذلك ظل المهاجرون يمضون في طريقهم يتواعدون سراً خارج مكة، ويتركون متاعهم وأموالهم ويهاجرون إلى المدينة.

وذات مساء جاء الزبير إلى بيته، وعلامات الجد والبشر في وجهه، ثم أسرّ إلى زوجته التي انتظرت منه أخباراً جديدة بأن رسول الله ﷺ أذن له بالهجرة إلى المدينة.

فرحت أسماء وقامت تهيِّئ له زاد الطريق، ومتاع السفر وعدة القتال.

وامتزجت في عيونها دموع الفرح والأمل مع دموع الفراق والبعد، وعندما انتهت من إعداد ما تحتاجه الرحلة، أسرّت إلى زوجها نبأ مفرحاً وأعلمته أن في أحشائها جنيناً، فازداد الزبير فرحاً

وأملاً وارتسمت في مخيلته صورة الطفل الجديد، وهمس: نعم سنكون ثلاثة بإذن الله، سيحمل معنا الرسالة، ويجاهد أعداء الله، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وجنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا. ومضت ساعات قليلة من الليلة، ودَّع بعدها الزبير زوجته، وخرج مهاجراً في سبيل الله، وأوصاها بتقوى الله، وطلب منها أن تنتقل إلى بيت أبيها وكتمان أمره عن الناس تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ.

ومضى ركب الزبير وصحبه نحو المدينة، تحيطه رعاية الله، وتودِّعه دعوات أسماء ودموعها الحارة الوفية. وفي الصباح، مضت هي إلى بيت أبيها الصّدِّيق الذي كان يعلم بهجرة الزبير، وضمَّها البيت الوفي مرة أخرى، بانتظار أمر الله، وهي تراقب الأحداث، وتنتظر يوماً تنتقل فيه مع بقية المسلمين إلى المدينة.

# الهجرة

اضطرمت مكة بالحقد على المسلمين، وتفاقم غضب قريش وعنفوانها بعدما هاجر أكثر المسلمين إلى المدينة، فما كان يمضي يوم وتشرق شمس إلا والأخبار تتناقل نبأ جديداً عن واحد أو أكثر قد تركوا الديار والأموال وهاجروا بدينهم إلى المدينة. كان بعضهم يتساءل: كيف يتركون دورهم وأهلهم وعشيرتهم ويذهبون؟ هل يجدون خيراً من أهلهم وذويهم هناك؟ وكان بعضهم يقف ويفكر: ما الذي غيَّر القوم فلم يعد أحدهم يكترث بما يخسر من مال، أو ما يلقى من عذاب في سبيل هذا الدين الجديد؟ ولكن الشيطان كان يطاردهم وينفخ في أدمغتهم: لا تتركوهم يفرون، فهم الخطر الداهم، غداً يأتون مع أهل المدينة ليغزوا بلدكم، امنعوهم من الهجرة، اقتلوهم لأن قتلهم أهون خطراً من إفلاتهم وهجرتهم.

وبين هذا الوسواس، وذلك الخاطر، وتلك الضجة والغضب، عاشت مكة أيامها بينما المسلمون يعدّون العدة ليسافروا أفراداً وجماعات. وجاء موسم الحج واتخذت قريش الحيطة والحذر لتمنع رسول الله ﷺ من لقاء أحد هناك، فحاصرته بالعيون، وتبعته في كل خطوة تكيده وتمنعه من دعوة القبائل للإسلام، ولكن كيد الشيطان كان ضعيفاً، لقد تراسل مع الأنصار الذين تكاثروا في المدينة حتى

جاء وفدهم وبايع رسول الله ﷺ بيعة العقبة، وانطلقوا بأعظم مغنم، وأفضل مكسب، وتوالى بعد ذلك تنظيم الهجرة إلى المدينة كما سلف.

وأضحت قريش في صخب عظيم، يمر كبراؤها على دور المسلمين فيجدونها خالية قد تركها أهلها وهاجروا، ويبحثون عن مواليهم فلا يجدونهم ويعلمون أنهم هاجروا إلى المدينة.

وفي ذات يوم مر عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام على دار عامر بن ربيعة بعدما أغلقت ولم يبق فيها أحد، حيث كان عامر وزوجته وأخوه الضرير قد هاجروا وتركوها فنظر عتبة إلى الدار تخفق أبوابها وليس بها ساكن، والريح تصفر في جنباتها، ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتهـــا ... يوماً ستدركها النكباء والحوَبُ

ثم قال: أصبحت الدار خلاء من أهلها.

فقال أبو جهل للعباس: هذا من عمل ابن أخيك، فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وقطع بيننا.

وكتم العباس مشاعره، لأنه كان يعلم من أمر الهجرة ما لا يعلمه كثير من الناس، ومضوا نحو بيوتهم، وكلٌّ منهم يفكر في أمر محمد وصحبه، ويحاول أن يتخيل ما ستكون عليه مكة بعد حين.

ومضى الشيطان بأبي جهل إلى بعيد فازداد غضباً وحنقاً: كان ينظر إلى جبال مكة وشعابها، فإذا في كل موضعٍ واحد ممن عذَّبهم،

وألهب ظهورهم بالسياط لقد فروا اليوم وأصبحوا في منعة ومنأى من سوطه وجبروته، ولكن... ما زال محمد بيننا، رأس الأمر كله، فلنمنعه، ولنسرع قبل أن يفلت...

توالت اجتماعات قريش في دار الندوة، كان الشيطان على رأس الذين يجتمعون هناك، يدفع بهم إلى غاية الشرك والضلال، وأبو جهل يحمل راية الحقد والباطل، ويدفع قريشاً المشركة للوقوف في وجه الدعوة والخلاص من رسولها. ها هي مكة وقد هدأت فيها المناقشات، واستقرت على قرار واختفت مشاهد التنكيل بالمسلمين، ولم يبق منهم إلا قلة قليلة لم تهاجر بعد، وتنتظر الفرصة السانحة، وكان رسول الله ﷺ وأبو بكر الصّدِّيق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما بين من بقي في مكة. ونزل وحي السماء يأمر رسول الله ﷺ بالهجرة بعدما قرر المشركون ذلك القرار، وأرادوا الكيد لرسول الله ﷺ وتآمروا على قتله، فبدأ الإعداد للهجرة.

تقول عائشة رضي الله عنها وهي تشهد جانباً من الإعداد للهجرة:

«كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار: إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهراني قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، وفي ساعة كان لا يأتي فيها». وأثار مجيئه في حر الظهيرة استغراب الصّدِّيق وابنتيه أسماء وعائشة اللتين كانتا في البيت معه آنذاك. وتتابع عائشة الحديث فتقول: «فلما رآه أبو

بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

ولما دخل رسول الله ﷺ تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا ـ عائشة ـ وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «**أخرج عني من عندك**».

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟

فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة**». فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله الصحبة».

وقالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ.

ثم قال أبو بكر: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا[1]. وأخذ رسول الله ﷺ إحدى الراحلتين بالثمن. ثم عاد إلى بيته، وبدأ الصّدِّيق في الإعداد للهجرة.

كانت عائشة وأسماء تعيان ما يدور حولهما، وسمعتا ما اتفق عليه رسول الله ﷺ وأبو بكر الصّدِّيق، ففرحتا بهذه البشارة، وأدركتا أهمية الأمر الذي جاء من أجله رسول الله ﷺ في هذه الساعة من النهار، ولا بد إذاً من الإعداد للهجرة حتى لا تستطيع قريش أن تنال من المهاجرين شيئاً.

فرحتا فرحاً شديداً بعدما رأتا أبا بكر يبكي فرحاً، وعرفتا أن رسول الله ﷺ يريد كتمان الأمر عن الناس، وحينما سمح لهما أن

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٩٧.

تستمعا إلى ما دار بينه وبين الصّدِّيق فإنه حملهما أمانة ومسؤولية وعليهما إدراك ذلك والقيام به.

ثم نادى الصّدِّيق أولاده، وأعاد عليهم الحديث الذي دار بينه وبين رسول الله ﷺ، وأوصاهم بكتمان الخبر، وشدة الحذر، وسرعة الإعداد للأمر، وحسن التصرف في ما يحدث، ووزَّع عليهم المهمات: يا عبد اللَّه، أنت شاب صغير لا ينتبه إليك الناس، ولا يأبهون بك، ولا يحذرونك، ولا يظنون أنك تهتم بهذا الدين أو غيره لأنهم لا يعرفون إلا التقليد وعبادة الأصنام، ومتابعة الآباء والأجداد، فعليك يا عبد اللَّه أن تمضي في كل يوم مع الصباح إلى نوادي قريش ومجتمعاتهم فتصغي لما يقولونه، وتسمع ما يتحدثون به، وتفهم ما يريدون عمله. اقترب منهم، ولا تشعرهم أنك تأبه لما يقولون أو تصغي لتسمع ما يتكلمون به.

وتستطيع يا بني أن تأخذ من أترابك الشباب أخباراً عما يدور في بيوتهم، تظاهر أنك تتحدث بأحاديثهم، ويهمك ما يهمهم، ولا تترك لهم ريبة فيحذرونك.

فإذا حل المساء جئت إلينا حيث نكون، مع أسماء أو وحدك لتنقل ما عرفت وما سمعت، ولك من الله خير الثواب إن شاء الله، وامضِ في حراسة الله وبتوفيقه.

فأجابه الشاب الفطن المحبوب عبد اللَّه[1]: سمعاً وطاعة يا

---

(١) صحيح البخاري، و«الإصابة» ٤/ ٢٧، قصة الهجرة برواية عائشة. وكان عبد اللَّه شقيق أسماء وقد مات في خلافة أبيه في شوال سنة إحدى عشرة للهجرة، وكان ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ بأربعين ليلة.

أبتاه، سأكون عند حسن ظنك بي، لعل الله يرضى عنا، ويرحمنا ويجعلنا من أهل الجنان.

أما أنت يا أسماء فعليك بجمع الأخبار ممن تلقين من النساء، ولكن مهمّتك الأساسية أن تعدي الزاد في كل يوم، وتأتينا به حيث نكون، وتعيني إخوتك على حسن التصرف، وتقومين بشؤونهم، وتكتمين عنا الخبر.

وأنت يا عائشة، سوف تكونين مع أسماء تعينينها على إعداد الطعام، وتهيئة شؤون الرحلة.

ثم أمر ابنه عبد اللّه أن ينادي مولاه عامر بن فهيرة الذي كان يرعى غنم الصّدِّيق في النهار حول مكة، فذهب وأحضره، فأخبره الصّدِّيق بالأمر، وطلب منه الكتمان، وقال له: عليك يا عامر أن ترعى غنمك كما كنت ترعاها كل يوم فإذا حل المساء وسرت نحو مكة تباطأ قليلاً، وسر بغنمك الهوينة حتى يسبقك الرعيان، ويحل الظلام، فحينها تأتينا حيث نكون، لتسقينا من حليب غنمك المبارك وتنتظر إلى أوّل الليل ثم تعود إلى مكة بغنمك، وتتبع عبد اللّه وأسماء. وأريد منك يا عامر أن تتصل بعبد اللّه بن أريقط الذي يرعى معك، وتتحدث معه، وترى رأيه فإذا استأنست منه خيراً طلبت منه أن يرافقنا في هجرتنا إلى المدينة ليدلنا على الطريق ويسلك بنا أحسن السبل لأنه خبير بالمسالك والدروب.

وحل الظلام، وبينما كانت قريش تتجمع في دار الندوة لتتآمر على رسول الله ﷺ، ويدفعهم الشيطان الذي تظاهر بأنه شيخ من نجد فيحضر معهم، إلى الاتفاق على قتله.

في هذا الوقت كان رسول الله ﷺ يخبر صاحبه الصّدِّيق بما يفعل، ويرتب معه خطط الرحلة، ووعده أن يأتيه في الليل ليبدأ طريق الهجرة.

ونام رسول الله ﷺ في بيته كعادته، وطلب من ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام عنده في البيت وأخبره ما أمره الله به من الهجرة، وأنه سينام في فراشه بعد أن يمضي ليوهم قريشاً بأنه ما زال نائماً، ثم أعلمه بما عنده من الودائع لقريش وأمره أن يعيدها لهم بعد هجرته.

وعندما حل ثلث الليل الأخير خرج رسول الله ﷺ فإذا بزعماء قريش وفتيانها المسلَّحين قد ناموا، فنثر الرسول ﷺ على رؤوسهم التراب وقال: «**شاهت الوجوه**» وقرأ آيات من سور «يسَ» وخرج وهم نائمون، وخاب سعيهم، وأفشل الله مسعاهم، وجاء إلى منزل الصّدِّيق حيث كان ينتظره فودَّع أولاده ومضيا على الراحلتين اللتين أعدهما الصّدِّيق ومعهما عبد اللَّه بن أريقط الذي وافق على أن يدلهما على الطريق.

كان بدء الرحلة من خوخة «فتحة» في ظهر بيت الصّدِّيق، واتجها إلى الجنوب الشرقي بدلاً من أن يتجها شمالاً وجهة المدينة، وقطعا مسافة لا بأس بها، ثم انتقى رسول الله ﷺ غاراً مهجوراً اسمه «غار ثور»، فدخلا فيه، وأويا إليه، وبقيا ثلاثة أيام حتى يئست قريش من اللحاق بهم، وأضلهم الله فلم يروا الرسول ﷺ وصاحبه مع أنهم وصلوا إلى الغار.

وقام عبد اللَّه وأسماء وعامر بن فهيرة بما أوكل لهم من مهام:

كان عبد اللَّه يمضي عند المساء نحو الغار فيخبر رسول الله ﷺ ووالده بما سمع من قريش وما علم من أمورها ونواياها.

وتمضي أسماء بالزاد، والأخبار أيضاً، وبعدها يكون عامر بن فهيرة قد وصل فسقاهما من حليب غنمه حتى إذا عادت غنمه على أثرهما ليضيع أثر الأقدام فلا يهتدي إلى الغار أحد من قريش.

وسارت الأمور على أفضل ما يرام بعد التخطيط والإعداد مع التوكل على الله عزّ وجلّ، فلما مضت الأيام الثلاثة قرر رسول الله ﷺ مواصلة الرحلة بعد أن تأكد منه فشل قريش ويأسها معرفة مكانهما. فأعلم الصّدِّيق أبناءه بذلك. وفي اليوم التالي أعدت أسماء زاداً للرحلة، تعاونها عائشة، فاختارت ما يناسب الرحلة من الزاد الخفيف، والماء والمتاع، ثم حملت عند المساء سفرتها إلى المهاجِرَيْن.

وعندما قام الصّدِّيق ليهيِّئ الراحلتين وليربط الأمتعة ويعدهما للسفر، فلما أعطته أسماء الزاد ليربطه على ظهر الناقة لم يجد حبلاً أو شيئاً يصلح لربطه، فسارعت أسماء إلى نطاقها الذي كانت تربطه في وسطها ـ كعادة النساء ـ وشقَّته نصفين وأعطته لأبيها وطلبت منه أن يربط الزاد بواحد والسقاء بواحد، ورفع الزاد إلى ظهر الناقة، وربطه مع السقاء على الأطراف، وأخذ من أسماء ما أعدته للسفر، ورسول الله ﷺ يرى ذلك كله فيسمي أسماء بذات النطاقين، وتظفر بهذا الوسام الكريم.

تقول أسماء: «صنعت سفرة النبي ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، فلم نجد لسفرته ولا لسقائه إلا نطاقي،

فقلت لأبي بكر: والله ما أجد شيئاً أربطه إلا نطاقي، قال: فشقّيه باثنين، فاربطي بواحد السقاء، وبآلاخر السفرة، ففعلت. فلذلك سميت بذات النطاقين»[1].

وقال لها رسول الله ﷺ: «**أبدلك الله عزّ وجلّ بنطاقك هذا نطاقين في الجنة**»[2].

ودَّعت أسماء رسول الله ﷺ، وودَّعت أباها، ودَعَتْ الله أن يحفظهما ويحفظ الدعوة، واغرورقت عيناها بالدموع، وتمنت لو أنها تستطيع مرافقتهما في هذه الرحلة المباركة، ولكن كيف؟ وقد أمرها أبوها أن تبقى في البيت مع إخوتها، تراقب الأحداث وتنتظر ما يأتيها من أخبار.

وعادت إلى مكة، ومضى أكرم صاحبين إلى المدينة على بركة الله بعدما أعدّا العدة، وهيَّئا كل الأسباب، وكتما الخبر، واستطلعا الموقف، ورافقهما عبد اللَّه بن أريقط ليدلهما على الطريق، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر.

كانت جبال مكة مظلمة موحشة في بهمة الليل، والشعاب دقيقة والطرق ضيقة والعثرات كثيرة، وقد تطرقها الوحوش، ولكن أسماء لم تكن تفكر بهذا كله، ولم تحسب حساب هذه المخاوف كلها يوم كانت تمضي بالزاد إلى الصّاحبين، وتوصل الأخبار لهما. إنها تعمل ذلك لمرضاة الله عزّ وجلّ، وهي في رعايته، فهل تخاف ما دامت في كنف ربها، ورعاية خالقها؟.

---

(١) «الطبقات الكبرى» ٨/ ٢٤٩ وغيره.

(٢) «الاستيعاب» (ترجمة أسماء) وابن هشام.

إنها آمنت بالله العزيز القدير، خالق الخلق، ومقدّر الرزق، وعنده الجزاء، وبيده الحساب، وليست هذه الدنيا إلا معبراً للآخرة، هي دار ابتلاء فلماذا تخشى الناس أو تخشى الطريق؟.

وصلت أسماء إلى بيت الصّدِّيق في مكة، ونامت في تلك الليلة، وسرحت مع أحلامها بعيداً حيث يعيش المسلمون في المدينة، كانت ترسم للطريق صوراً كثيرة، فتنقبض حيناً، وتفرح أحياناً، وربما دمعت عيناها حيناً آخر.

وأصبح قلبها معلقاً في دار الهجرة، دار الأحباب والأهل، حيث الإسلام والإيمان ومنزل القرآن، مع رسول الله ﷺ، ومع أبيها الصّدِّيق، وزوجها الزبير، وإخوانها من المسلمين والمسلمات، متى يأذن الله بذلك؟ وعسى أن يكون قريباً.

لم تمضِ غير ساعات من النهار حتى سمعت أسماء طرقات عنيفة على الباب، فاستعاذت بالله العظيم من طارق يطرق إلا بخير، وذهبت لتفتح الباب، فإذا بأبي جهل يقف والشرر يتطاير من عينيه، والغيظ بادٍ في كيانه كله، ومعه نفر من قريش، وما إن فتحت الباب حتى سألها بفظاظة وخشونة: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟.

وتأنَّت أسماء في الجواب، ودعت ربها تسأله العون، فأحست بهذا الطاغية بالصّغار والاستقذار، وأجابته برباطة جأش: لا أدري والله أين أبي...

يا له من فاجر أحمق، يريد من المرأة الشابة المؤمنة أن تدله على أبيها، وكان يظن أنه مع صحبه سيرهب الفتاة فتنهار أمام نظارتهم الحاقدة، وتهديدهم المنكر، ولكنها زادت بهذا الموقف ثباتاً وشجاعة.

أما الصّدِّيق فإنه مع رسول الله ﷺ في الطريق إلى المدينة، لعله على بعد ميلين أو ثلاثة أو عشرة من الغار، ولعله توجه جنوباً أو شمالًا، فلقد ودَّعتهم أسماء عند الغار ومضوا ومضت برعاية الله.

ولم يعجبه جواب أسماء، كيف تنكر أنها لا تعرف مكان أبيها؟ بل رأى في نظراتها تحدياً واستصغاراً له، فاشتد غضبه وازداد غيظه ثم رفع يده ولطمها على خدها لطمة قوية طرحت منها قرطيها.

يا للصّغار، يقف أمام امرأة فلا يستطيع أن يرى منها رباطة جأش، ولم يطق أن يسمع منها ما يتحدى كبرياءه وغطرسته، فيضربها، بل وكان فاحشاً بذيئاً، يشتم ويسيء في القول.

أية يدٍ هذه التي امتدت إلى أسماء؟!

لقد تذكرت زوجها الزبير، الذي يغار عليها من نسمات الربيع وينجد المظلوم ويأخذ على يد الظالم.

كيف لو كان هنا بمكة، أيجرؤ حينها أبو جهل على هذا؟

ولكن الطاغية الذي يعلم أن المسلمين قد هاجروا ولم يبقَ إلا بعض المستضعفين الذين حبسوا عن الهجرة، والنساء والأولاد الذين تخلفوا بانتظار الأخبار من المدينة، ولكن الحساب آتٍ لا محالة، سيعود المهاجرون إلى مكّة، وسيلقى الظالمون جزاء ما أجرموا وطغوا، وستصل إليهم عدالة السماء.

ومضى أبو جهل وصحبه يمضغ الحقد والغيظ لما رأى من صلابة أسماء وثباتها.

جلست أسماء مع إخوتها ينتظرون أخبار المهاجرين، ويستعيدون

ذكريات الأمس، حين كانت مكة تشهد تعذيب المسلمين، وإيذاء المؤمنين، واليوم خلت الدار من أهلها، ولم يبقَ إلا الظالمون. وانتظرت أسماء الخبر، ومضت أيام، ولم تسمع شيئاً، وفي اليوم الرابع سمعت صوتاً من بعيد في أسفل مكة وهو ينشد:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلاَّ خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى واغتذوا به فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وكان المنشد واحداً من الجن أراد أن يبشِّر أسماء وإخوتها وصولهم إلى خيمة أم معبد في الطريق ونجاتهم من المشركين، فعلمت أن هذا الشعر يعني رسول الله ﷺ وصاحبه الصّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وعرفت أنهما توجَّها إلى المدينة.

نامت أسماء أكثر اطمئناناً، وكانت تنتظر خبر وصولهم إلى المدينة المنورة، ثم راحت تفكر في هذه الرحلة الطويلة، وحين تذكر المخاطر التي تكمن في الطريق ينقبض قلبها ويساورها القلق، لا سيما بعدما علمت أن قريشاً رصدت مئة ناقة لمن يأتي برأس محمد ـ ﷺ ـ حياً أو ميتاً، ولكن الله عزّ وجلّ ناصر دينه، ومؤيد رسوله، وهو القوي العزيز.

إنها تنظر بلهفة وشوق إلى ذلك اليوم الذي تهاجر فيه إلى المدينة وتنضم إلى المجتمع المسلم هناك، آه من قريش التي حاربت دين الله، وتعصبت للأوثان والأصنام، وتمسكت بدين الآباء وعادات الأجداد فلم تفكر، حتى غلبها الهوى واستحكم فيها العناد فظلت

على الشرك والضلال، يا لها من حمقاء، ولكن سيأتي اليوم الذي تعود فيه إلى رشدها وينتصر دين الله.

وقفزت إلى خيالها صورة أبي جهل مع صحبه من المشركين وهو يسألها عن أبيها ثم يصفعها، وتوالت الصور في دروب مكة وشعابها، وهي ترى المعذبين والمفتونين. إنها المحنة والابتلاء الذي ينبغي أن تصبر عليه مع المسلمين، ولن تفلح إلا بالصّدق والتضحية، لقد أحست أنه لا صدق مع الجبن والتردد والخوف، ولا تضحية مع التمسك بالمال والدنيا والخوف من الخطر، فلتكن شجاعة صبورة ولو كانت وحدها أمام طغيان قريش حتى تظفر بمرضاة ربها وذلك هو الفوز الكبير، ولكن هل تكفيها الشجاعة، والتضحية والصبر، لا، لا بد من أن تتميز بحس المؤمن، ووعي المسلم، هذا الحس الذي يفتح بصيرة المؤمن ويكشف الله أمامه أشياء وأشياء لا يدركها إذا لم يتميز بهذا الوعي وهذا الإحساس.

ألم يحاول طاغية المشركين أبو جهل أن يأخذ منها شيئاً يعرف منه وجهة أبيها مع رسول الله ﷺ؟

ألم تشعر بالعيون، والجواسيس من المشركين والمشركات تراقب البيت وتترصدها وتترصد أخاها وبقية المسلمين؟

لهذا لا بد من الوعي، والفطنة، والحذر الشجاع، وهكذا كانت أسماء.

لقد كانت تقوم بكل ما يناط بها من أعمال، وما تدرك بأنه واجب عليها القيام به في ليل أو نهار، بكل شجاعة وذكاء، لهذا لم يستطع كفار قريش وطغاتها أن يعرفوا شيئاً عن هجرة رسول الله ﷺ

مع أبيها، أو عن تحركاتها هي وأخيها وبقية المسلمين في مكة، واتصالاتهم بالمسلمين في المدينة.

وبينما كانت تسرح مع أفكارها وآمالها، فاجأها جدها العجوز أبو قحافة الذي كان يرى أن ابنه أقدم على شيء خطير يهدد حياته وحياة أسرته، وكان حانقاً من إنفاق الصّدِّيق لكثير من ماله في سبيل هذا الدين أسرته، بل وأثاره أكثر وأكثر أنه ترك ابنتيه وابنه عبد اللَّه مع جدهما وبعض مواليه وأخته وهاجر مع النبي الجديد ولم يعد لهم مورد يعيشون منه، فجاء إلى أسماء والهواجس تكبر في نفسه، وهو يدب على عصاه، ويتلمس بها طريقه لأنه أعمى لا يبصر، فقال لها: إني لأراه ـ أي الصّدِّيق ابنه ـ قد فجعكم بماله مع نفسه؟

وأدركت أسماء ما يدور في نفس العجوز المسكين، فهداها الله عزّ وجلّ إلى حيلة ذكية، أرادت بها أن تسكن الشيخ العجوز، وتخلصه من الهواجس والمخاوف، فيرضى من ابنه الصّدِّيق، فقالت:

ـ كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. ثم أسرعت فجمعت بعض الأحجار الصغيرة التي تساوي في أحجامها الدراهم والدنانير، ووضعتها في كوة كان الصّدِّيق يضع فيها ماله، وغطتها بثوب، ثم أخذت بيد الشيخ وقالت له: ضع يدك يا أبت على هذا المال، إنه ترك لنا خيراً كثيراً، فوضع يده وقال: لا بأس إن ترك لكم هذا فقد أحسن، ففي هذا بلاغ.

وهدأ الشيخ العجوز، ورضي عن ولده، واطمأن إلى أحفاده، ونجحت أسماء الذكية في تسكين الرجل، وحسن التصرف، مع أن

الصّدِّيق لم يترك لهم شيئاً إلا الله عزّ وجلّ، وأخذ ماله كله ـ وكان يبلغ خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم ـ لينفقه في سبيل الله وليتابع فيه مسيرة الدعوة.

هكذا كانت أسماء تتفتح بصيرتها، وتدرك بوعيها ما ينبغي أن تدركه المؤمنة الصّادقة، ولتكون الداعية الحق، رضي الله عنها وعن بقية الصّحابة والتابعين.

obeikandl.com

# إلى المدينة

وصل رسول الله ﷺ ومعه الصّدِّيق إلى المدينة، وكان يوماً عظيماً كبَّر فيه المسلمون فرحاً حتى ارتجت المدينة من تكبيرهم، وخرجوا جميعاً للقائه والترحيب به، وكلّ حيّ يدعوه للنزول عنده، وسار حتى نزل بقباء في بني عمرو بن عوف عند كلثوم بن الهدم[1]. أما الصّدِّيق فقد نزل بالسنح على حبيب بن أساف أخي بني الحارث بن الخزرج، وقيل: على خارجة بن زيد.

لقد نجحت أعظم رحلة في التاريخ، رحلة الإيمان، وخسرت قريش المعركة وخاب الشيطان وجنوده وانتهى مكرهم إلى يباب.

وبعد أيام ثلاثة من هجرة رسول الله ﷺ لَحِق علي بن أبي طالب به إلى المدينة بعد أن أدى الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها من أهل مكة، ونزل معه في قباء، وتأسس أول مسجد في الإسلام، واشترك المهاجرون والأنصار في بنائه، ثم واصل الرسول ﷺ السير حتى بركت ناقته في بني النجار ونزل على أبي أيوب الأنصاري.

عمت الفرحة دور الأنصار، وكان النساء والصبيان والإماء

---

(١) وقيل: على سعد بن خيثمة من الأنصار.

ينشدون، ويقولون وهم فرحون: هذا رسول الله!! قد جاء رسول الله!! وتهلل وجهه ﷺ من صدق اللقاء، وروعة الاستقبال، فما كان يوم أحسن ولا أضوأ منه من يوم دخل المدينة كما قال أنس بن مالك.

ثم بدأ رسول الله ﷺ ببناء مسجده، ومركز دعوته في المدينة، فتسابق المسلمون من المهاجرين والأنصار للاشتراك في هذا العمل العظيم، لقد كانت صورة رائعة لمجتمع ولد وسط الجاهلية لكنه كان مجتمعاً ربَّانياً، يوحِّد الله، ويجتمع لمرضاته، واكتمل المسجد، مع حجرتين لسكنى رسول الله ﷺ.

وعندها بعث زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا ببقية أهله، وبعث الصّدِّيق عبد اللَّه بن الأريقط دليلاً مع زيد وأبي رافع، وأعطاهم خمسمئة درهم وبعيرين، فاتجهوا نحو مكة بعد أن اشترى زيد ثلاثة أبعرة أخرى ليستعين بها في العدوة، وليحمل عليها النساء والأطفال.

وعندما وصلوا إلى مكة، استخفوا عن الناس، وتحركوا بحذر وهدوء، ولم يضيعوا الوقت حتى لا تشعر قريش بالأمر، بل أسرعوا إلى بيت النبي ﷺ، وبيت الصّدِّيق، وأعدوا من كان بهما للهجرة إلى المدينة. وما أشد فرحة فاطمة وأم كلثوم بنتي النبي ﷺ وأسماء وعائشة وعبد اللَّه أبناء الصّدِّيق ومن كان معهم من الموالي، فهيأوا زاد الرحلة، ومستلزمات الطريق. وتواعد الجميع في موعد الانطلاق، وفي الوقت المحدد كان الركب مع زيد بن حارثة وفيه فاطمة وأم كلثوم، وسودة بنت زمعة، وأم أيمن زوج زيد بن حارثة حاضنة النبي ﷺ، وأسامة بن زيد حبه.

وأراد زيد أن يأخذ زينب بنت النبي ﷺ معه إلى المدينة (زوجة أبي العاص بن الربيع ابن خالتها) ولكن أهل أبي العاص منعوها من ذلك.

وسار مع هذا الركب عبد اللَّه بن أبي بكر، وأم رومان زوجة الصّدِّيق، وعائشة وأسماء ابنتي الصّدِّيق.

كان الشوق يسبقهم إلى المدينة، حيث الأحبة والإيمان، فما وجدوا عناءً ولا أحسوا بتعب، بدا لهم الطريق سهلاً ميسراً، نسوا التعب، واستسهلوا البعد، وخفَّت صعاب الطريق.

وبينما كان الركب سائراً إذ ببعير ينفر ويركض ويهيج، وعليه عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ وابنة الصّدِّيق، ولم يستطع الرجال مسكه أو إيقافه، وأم رومان تصيح وتصرخ خوفاً على ابنتها عائشة: واعروساه! واابنتاه!.

وأمسك الجميع أنفاسهم، وخافوا على عائشة من الوقوع عن ظهر البعير، أو أن يضل بها في هذه البوادي وبين الشعاب، وانتظروا فرجاً من الله الرحيم.

أما عائشة فلم تكن أقل خوفاً وهلعاً منهم، تشبثت بالبعير، وشدت له الخطام وحاولت إيقافه، ولكن البعير ازداد نفوراً وهيجاناً، حتى صارت تنظر إلى حيث تقع، فتتكسر عظامها، وتتهشك أعضاؤها، وينزف دمها، وفجأة سمعت صوتاً قوياً يقول لها بصيغة الأمر: أرسلي خطامه، فإذا بها تستجيب للصّوت بلا إرادة، وتترك خطامه، فيقف البعير ويستقر ويهدأ، وكأن شيئاً لم يكن.

وقف الجميع وقد أخذتم الدهشة والعجب، فحمدوا الله وكبَّروه وشكروه وفاضت عيونهم بالدمع، وأدركوا أن رعاية الله سبحانه أرحم وأعظم، فاستأنفوا السير بعدما استردوا أنفاسهم، وكانوا يخشون أن يحدث لهم ما يؤخرهم في الطريق، لا سيما وأن أسماء كانت حاملاً، فخافوا أن يطرأ طارئ فتضع حملها من التعب أو المفاجآت.

ولكن أسماء نسيت آلامها وحملها، وتجلدت وصبرت، لأنها كانت في غبطة وطمأنينة أشاعت في نفسها العزم والمضاء، وتطلعت بشوق إلى لقاء النبي ﷺ وصحبه الصّدِّيق والزبير.

ومضت أيام لاحت للقافلة على البعد جبال المدينة وآطامها، فخفقت قلوبهم بالفرح، ثم ظهرت بساتين النخيل، وبدأت البيوت تقترب شيئاً فشيئاً. وبعد ساعات دخلوا المدينة فكأنهم أحسوا بنخيلها وأحجارها تحييهم. إنهم يستنشقون هواء منعشاً، ويشعرون بطعم للحياة غير طعمها في مكة، كل شيء باسم طلق، فيه جمال البراءة، واستواء الفطرة، وفيه روائح زكية منعشة، إنها دار الإسلام، ووجوه البررة من الأنصار والمهاجرين. لم يروا تلك الوجوه الفظة، والغطرسة الحاقدة من وجوه الكافرين، ولم تصادفهم مناظر التعذيب والإيذاء في الطرقات والدروب.

ها هم الأنصار يجتمعون حولهم، يرحبون بآل النبي ﷺ وآل الصّدِّيق ويحيونهم بتحية الإسلام، الوجوه باسمة، والقلوب ضاحكة، والأيدي مرحِّبة.

جاءت النساء لتستقبل بنات رسول الله ﷺ وبنات الصّدِّيق، ثم

نزلن في قباء فصلَّين في أوّل مسجد بني في الإسلام على التقوى، ثم جلسن في بيت من بيوت الأنصار يسترحن من عناء الطريق، بينما ذهب من يبشر رسول الله ﷺ والصّدِّيق بمقدم الأهل والأولاد.

ودار الحديث عن مكة التي بقيت على شركها، عن الأوثان التي ملأت البيت العتيق، وعن الصّادقين الصّابرين الذين حملوا راية التوحيد حتى وصلوا بها إلى المدينة.

تحدثن عن سمية المجاهدة التي استشهدت على يد أبي جهل وكيف بقيت على إسلامها رغم التعذيب والطغيان، حتى أكبرَ نساء الأنصار جهاد إخوانهم وأخواتهن من المهاجرين والمهاجرات.

وكن يسألن أسماء ـ التي كانت أكبر البنات سناً ـ عن طريق الهجرة وقصة الثبات، وقصة الجاهلية الباغية التي انقضت على دعوة الله لتدفن كلمة الحق ودين الله قبل أن ينتشر ويتبلغه الناس.

وفي ذلك الموقف كان نساء الأنصار يستمعن بصمت، ويعين أنهن منذ أن دخلن في الإسلام بدأن يحملن أمانة عظيمة ولن تكفي الفرحة والنشيد لاستقبال الإسلام والمسلمين، ولن يكفي الإكرام والترحيب برسول الله ﷺ وصحبه فهذا أقل الواجب، بل هذا أول الطريق الطويل لهن مع المسلمين من الرجال على طريق الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، لأن ذلك طريق الجنة وهو طريق محفوف بالمخاطر والمخاوف والصعاب.

# أول مولود في الإسلام

عاد الزبير من رحلته إلى الشام مع القافلة، فوجد زوجته أسماء قد لحقت به إلى المدينة، فاطمأن واستراح، وراح يبني حياته الإسلامية الجديدة في المدينة بعدما هاجر أكثر المسلمين، ولم يعد في مكة إلا المستضعفون والمتخلفون، وكان مع إخوانه من المهاجرين والأنصار يوطدون دعائم المجتمع الإسلامي الجديد، والدولة الإسلامية الجديدة. فلم يعد عندهم وقت للفراغ، فهم بين تفقُّهٍ ودراسة في دين الله، وحضور لدروس النبي ﷺ وتعليمه لهم، أو تدريب على القتال، أو تدارس لوضع المدينة وما حولها، أو حراسة واستطلاع لأمر المنافقين والكافرين واليهود، ولا ينسون أمر السعي للرزق بما يكفل الحياة البسيطة، والرزق الحلال، فإذا عادوا إلى بيوتهم وجدوا الزوجة الصّالحة، التي تشاركهم أعمالهم، وتحمل معهم أعباء الجهاد، ومسؤولية الحياة، وتخفف عنهم العناء، وتلمس جراحهم ببلسم عاطفتها وحنانها، فينسون ويستسهلون الجهاد، في هذا الجو الإيماني الصّادق.

أما أسماء فلقد تغيرت حياتها هنا عن مكة، وكانت هناك لا تترقب عودة زوجها أو أبيها، وكانت تتابع أخبار رسول الله ﷺ وأخبار المشركين الذين يصدون عن دعوة الله، وترى كل يوم مشهداً من مشاهد التعذيب، وتسمع بقصة من قصص الإيذاء.

أما في المدينة فلقد زالت هذه الصور، وكم كانت فرحة مسرورة عندما رأت رسول الله ﷺ وحوله المهاجرون والأنصار، فوعظهم وحدثهم ثم ذكرهم بما عليهم، وآخى بينهم، فأضحى المهاجر أخاً للأنصاري، يتعاونان ويتحملان أعباء الحياة مع بعض، وإذا بالأنصار يقدمون أموالهم ليتقاسموها مع إخوانهم المهاجرين[1]، حتى قال المهاجرون عنهم: ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، كفونا المؤونة وأشركونا في المهنة (أي الخدمة) حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، ولكن رسول الله ﷺ طمأن الجميع، بأن لكل منهم أجره. وعندما رأى اليهود هذا الإخاء بين المهاجرين والأنصار، أدركوا الخطر، وعلموا أن ديناً يجمع الناس على هذا الإخاء وهذه الألفة، ويوحِّد بينهم هذا التوحيد لا بد وأنه دين صادق، سينتصر على كل نِحْلة ودين، وسينتصر أهله على كل الناس إن صدقوا في حمله، فخافوا على مصلحتهم، وأحسوا بزوال سيطرتهم على المدينة وبطلان مكرهم ومؤامراتهم، لذلك تداعوا للتباحث في أمر المسلمين، وبدأوا يتصلون بالمشركين من أهل المدينة، وببعض الذين دخلوا في الدين الجديد مراعاة لقومهم، فاستجاب هؤلاء لهم، وتعاهدوا على الكيد للإسلام والمسلمين، ومحاربتهم، فصار المنافقون يحضرون بين المسلمين، ويستمعون إلى ما يتلى من آيات، فإذا خرجوا من عند رسول الله ﷺ بدأوا يسخرون ويكيدون ويشككون. ويتلمسون أية ثغرة للنفاذ منها إلى صفوف المسلمين والمكر بينهم.

---

(١) كان هذا في أول الهجرة ثم نزلت آية الميراث.

ووعد اليهود أعوانهم من المنافقين أن يشنوا حرباً دعائية قوية بين صفوف المسلمين، لأنهم لا يستطيعون مجاهرتهم بالعداء بعدما عاهدوا النبي ﷺ على التعاون والدفاع عن المدينة ضد المعتدين، فصاروا يفسرون بعض الآيات والحوادث تفسيراً غريباً يشكك بالنبي ﷺ، ويبلبل صفوف المسلمين، ويدَّعون أن كتبهم أوضحت ذلك.

وانتبهوا أن المسلمين منذ أن قدموا إلى المدينة لم يلد لهم مولود، وقد مضت شهور على ذلك، فرأوا في ذلك فرصة للتشكيك والتشويش فادعوا بأنهم سحروا المسلمين لذلك لن يلد لهم مولود، وظنوا أن هذه الإشاعة الكاذبة سوف تزعزع المسلمين، وتنفرهم عن دين الله، لأن العرب يحبون الذرية ويستكثرون من الأولاد.

ومضت أيام كثيرة، والأقاويل تترى، والإشاعة تنتشر والناس يتحدثون، ويتساءلون عن السبب حتى أضحت حديث النساء في البيوت.

وبينما كان المسلمون في مجتمعاتهم في المدينة، إذ بالبشير يأتي من بيت الزبير بن العوام يقول له: لقد ولدت أسماء مولوداً ذكراً. سمع المسلمون بالنبأ، وكان هناك عدد منهم، فعلت أصواتهم بالتكبير، وتبادلوا التهاني وفرحوا بمولودهم الجديد، حتى سمع اليهود بالنبأ فأسقط في أيديهم، وازدادوا غيظاً وغمّاً، وكان يوماً ارتجت فيه المدينة من التكبير. ومضت ساعة من الزمن فإذا بأسماء تحمل مولودها وتذهب به إلى رسول الله ﷺ وتدفعه إليه، فيستبشر به، ويرحب بأسماء وبوليدها الميمون، ثم وضعه في حجره ودعا

بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه، وحنّكه، فكان أوّل شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم سمّاه عبد اللّه، وكنّاه بكنية جده أبي بكر.

كانت أسماء ـ ولما يمضِ على ولادتها ساعات ـ قد نسيت آلامها وهي ترى رسول الله ﷺ يبارك ابنها ويحنّكه، ويسميه، ويدعو له، ثم حملته وهي تسمع تكبير المسلمين، وتتلقى تحياتهم، وبعضهم يحمل الوليد ويبشّ له، وهكذا كان يوم ولادتها يوماً مشهوداً، فلقد كان أوّل مولود في الإسلام كما كان يذكره المسلمون.

obeikandl.com

# في البيت المسلم

مضت حياة أسماء مع الزبير حياة هانئة سعيدة، كانت جهاداً كلها، همهم مع أولادهم أن ينالوا رضوان الله عزّ وجلّ، ويتابعون الدعوة، ويشاركون في الجهاد، كان أمر المعيشة أقل الأمور أهمية عندهم، يرضون بالقليل والكفاف، ليوفروا ما لديهم من أجل الجهاد والدعوة، وليتفرغوا لأمر دينهم وحمله للناس كافة.

ولم تلههم الدنيا، ولم تستغرقهم حياة البيت، رغم ما رزقهم الله من الولد فقد كانت أسماء تتعهد ابنها لينشأ نشأة إسلامية صحيحة. بينما كان الزبير ينشغل بالجهاد والدعوة إلى الله مع رسول الله ﷺ وبقية المسلمين، ويترك بعض الوقت لاكتساب الرزق. وكانت هي تدرك واجبها في التفقُّه والتعلُّم وفهم دينها للالتزام به، وبالتالي تربية أولادها، وصياغة حياتها وفقاً لشريعة الله عزّ وجلّ.

كانت أسماء تلاعب ولدها عبد اللَّه، وترقصه كما تفعل كل أم مع طفلها الصغير وهي تقول:

أبيض كالسيف الحسام الأبريق ... بين الحواريّ وبين الصّدِّيق
ظنـــي بـــه ورب ظـــن تحقيـــق ... والله أهل الفضل وأهل التوفيق[1]

---

(١) «أعلام النساء» ١/ ٤٩.

وبدأت مرحلة الجهاد بالسيف بين المسلمين والمشركين، فكانت تهيِّئ للزبير أداة الحرب، وتعتني له بالفرس، وتعلف له الدواب لمثل هذه الأيام. وما إن بدأ ابنها عبد اللّه يدرك الأمور حتى بات يرى أباه خارجاً إلى الجهاد وعائداً منه، فيجلس إلى أمه حيناً ليسألها عن أبيها، فتحدثه عن الإسلام وعن ثواب الله الذي أعده للمجاهدين، وتعده بالجهاد حينما يصبح قادراً على ذلك، وتطلب منه أن يتعلم دينه، ويتعلم عبادة ربه حتى يتهيأ للجهاد، فإذا عاد أبوه بدأ يسأله عن المعركة وعن الكفار، وعن مكة والبيت الحرام، ويصغي إليه بشغف ليعرف كيف تدور المعركة، وكيف ينتصر المسلمون.

وكلما سمع قصة صحابي من الصّحابة الشهداء تمنى أن ينال ما نال من رضوان ربه بعدما جاهد في الله حق جهاده، وأبلى في المعركة أحسن البلاء.

ولم تدع أسماء مناسبة من المناسبات إلا وتزيد في تفقيه ابنها وتعليمه شيئاً من أمور الحياة وفقه شريعة الله.

فإذا ذكرت مكة راحت تحدثه عن الطغاة المشركين الذين عذبوا المسلمين وآذوهم وقتلوا بعضهم حتى اضطروهم للخروج من بلدهم وترك أموالهم فراراً بدينهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة. ويصغي المسلم الصغير إلى حديث أمه، فيمتلئ حماساً، ويتأجج عاطفة لملاقاة المشركين وقتال الكفار، ولكنها تعلمه أن ذلك مرهون بطاعته لله، ومعرفته لدينه، وبلوغه سن الكبار الذين يستطيعون حمل السلاح.

أما هي فلم تكن تدع درس رسول الله ﷺ، تتحين الفرص بعدما تؤدي ما عليها من واجبات في البيت ثم تمضي للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، وتستمع لما يحدث به الناس، وكثيراً ما اتفقت مع غيرها من النساء واجتمعن ليسألن رسول الله ﷺ عن أمور تخصهن، أو ليستمعن إلى حديثه ومواعظه.

وإذا فاتها شيء من ذلك، تذهب إلى أختها عائشة تسألها عما تحدث به النبي ﷺ وعن حياته في بيته، وعما سمعت منه، حتى تدرك ما فاتها، وتتفقَّه في أمور دنياها وآخرتها، وعندما تعود إلى بيتها تبدأ في تعليم ابنها ما يناسبه وتشرح له من الإسلام ما يذكي حماسه، ويدفعه لحب الإسلام والمسلمين، وكم كان يقول لأمه: غداً سنعود إن شاء الله إلى مكة ونقتل الكفار أو يسلمون ويتركون عبادة الأصنام.

ولقد عودته على قراءة كتاب الله في كل يوم وفهم ما يقرأ، حتى أصبح يسألها في كل يوم عما عرفته من كتاب الله أو سمعته من حديث رسول الله ﷺ، ثم بدأ يرافقها في حضور الصلاة في المسجد وسماع حديث رسول الله ﷺ، وكم كانت خالته عائشة فرحة به مغتبطة من ذكائه وشدة وعيه حتى أحبته واعتبرته ابناً لها، ولشدة ما كانت تحبه وتقربه وتعتني به وتعلمه دعيت بأم عبد اللَّه.

ولما بلغ السابعة من عمره جاء الزبير يوماً وأمره أن يتهيأ للذهاب معه إلى رسول الله ﷺ، وفرح عبد اللَّه فرحاً شديداً، وشعر بالزهو من هذه الدعوة التي جاءته من أبيه، وأنه أصبح رجلاً كبيراً يحضر مجالس الرجال، فأسرع وارتدى ثوباً نظيفاً وخرج مع والده.

وبعد أداء الصلاة رأى عدداً من أترابه: عبد اللَّه بن جعفر، وعمر بن أبي سلمة، فاجتمعوا مع آبائهم ثم ذهبوا بهم إلى رسول الله ﷺ، وأمروهم بأن يبايعوه على الإسلام، بعد أن كلموه على أن يبايعهم لتصيبهم بركته، ويكون لهم ذكر، فقبل عليه الصلاة والسلام، ولما وصلوا إليه تكعكعوا (خافوا وجبنوا) فإذا بعبد اللَّه بن الزبير يقتحم المجلس أمامهم، ويتقدم لمبايعة النبي ﷺ قبلهم، وكانت مشيته مشية الرجال، فيه الثقة والعزم، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**إنه ابن أبيه**»[1].

ومن ذلك اليوم أدرك أنه أصبح واحداً من الرجال ينبغي أن يتعلم ويفهم كما يتعلم الرجال الكبار، وينبغي أن يشترك معهم في الجهاد والدعوة، ولذا فلقد أصبح يلازم أباه في مجالس الرجال، يستمع إلى رسول الله ﷺ، ويرى مشاهد القتال، ويتدرب مع أبيه على ركوب الخيل، فإذا عاد إلى البيت حدث أمه أسماء بما سمع وما رأى، فتزداد فرحاً به، وتحثه على الاستزادة من العلم، ومواظبة التدرب والاستعداد.

ومضى عبد اللَّه يوماً إلى المسجد للصلاة، ثم جلس عند رسول الله ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ من ذلك التفت إليه وقال: «**يا عبد اللَّه، اذهب بهذا الدم، فأهرقه حيث لا يراك أحد**».

وأسرع عبد اللَّه ليأخذ الوعاء من النبي ﷺ وفرح بهذه المهمة التي خصه بها رسول الله ﷺ والوصية التي أوصاه بها. فقال له:

---

(١) «الإصابة» ٤/ ٩٢.

سمعاً وطاعة، ثم حمل الوعاء ومضى، وابتعد قليلاً حتى توارى عن أنظار الناس، ولم يعد يراه أحد، ثم توقف لحظة وفكر في أمر الدم الطاهر الذي أعطاه إيّاه رسول الله ﷺ، وتساءل: أين أضعه حتى لا يراه أحد؟ وكيف أريق دماً طاهراً من رسول الله ﷺ على هذا التراب؟ إنه زكي طاهر، مبارك، وتذكر حينها حديث أمه عن بركات رسول الله ﷺ وكيف أنها حرصت على أن يدخل جوفه شيء قبل أن يباركه ﷺ ويحنّكه، وكذلك كان. وتذكر كثيراً من القصص عن معجزاته وبركاته التي أجراها الله سبحانه وتعالى على يديه، فهل يترك دمه يراق على التراب..؟ لا... لا... إنه جزء من رسول الله ﷺ الذي فضله الله على العالمين واختاره ليكون خاتم النبيين، فأين أضعه؟ إنه يريد مكاناً يحفظه فيه من عيون الناس ودنسهم، آه لقد عرفت أين أضعه، إنه أحسن مكان، تلفت حواليه وخلفه فلم يجد أحداً فقال: بسم الله، ثم عمد إلى الدم فشربه كله، وحمد الله وعاد إلى رسول الله ﷺ فرحاً مطمئناً، لأنه وجد مكاناً لا يراه أحد من الناس. فسأله النبي عليه الصلاة والسلام: «**يا عبد اللَّه، ما صنعت بالدم؟**»، فأجابه عبد اللَّه وهو واثق مطمئن: «جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس».

وعرف رسول الله ﷺ ما فعل عبد اللَّه، فقال له: «**لعلك شربته؟**»، فأجابه عبد اللَّه مبتسماً: نعم.

فسأله رسول الله ﷺ: «**ولم شربت الدم؟ ويل للناس منك وويل لك من الناس**»[1].

---

(١) المصدر السابق.

ومضى عبد اللَّه إلى أمه وأبيه ليحدثهما بما صنع، فازداد يقينهما بأنه سيكون صاحب شأن، وازدادت عنايتهما به، بعد أن تأكد لهما شدة ذكائه ووعيه، وحرصه على فهم الإسلام والجهاد في سبيل الله.

وأصبح الناس وهم يرونه يزداد قوة وشجاعة وعلماً، يقولون: إن القوة التي كانت له من ذلك الدم الذي شربه.

وأصبح بعدها لا ينقطع عن دروس رسول الله ﷺ، وكثيراً ما يبيت عند خالته عائشة ليزداد علماً وفقهاً وفهماً.

ومضت سنون وسنون، وجرت أحداث وأحداث، وكان عبد اللَّه يزداد فيها تألقاً، ويزداد تطلع الناس إليه، وتقف أمه أسماء معه في كل المواقف، ترشده وترعاه، فيرى فيها الأم الحنون، والمدرسة الواعية، والناصح الأمين.

ومرت السنون، وبيت أسماء يزداد ويتكاثر بالإسلام والعلم والفضل، لقد رزقها الله مع الزبير عدة أولاد بعد عبد اللَّه؛ عروة، وهشام، والمنذر، وعاصم، والمهاجر، وخديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة[1].

وكان لهؤلاء الأبناء إخوة آخرون من غير أسماء وهم: مصعب بن الزبير، وحمزة، ورملة، وخالد، وعمرة، وعبيدة، وجعفر، وخديجة، وعائشة. وقيل: كان للزبير أحد عشر ولداً وتسع نسوة.

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (تراجم النساء) ٨، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي، و«المعارف» لابن قتيبة.

وكانت أسماء لا تنسى ولداً من أولادها، تعلمهم، وتربيهم، وتحثهم على طاعة الله، والجهاد في سبيله، والتزام الحق.

وكانت تحرص على أن ينال كل واحد من أبنائها حقه من الرعاية والاهتمام، حتى يستقيم على أمر الله، فإذا رأت منه اهتماماً بأمر شجعته ودربته، ودفعته على الاستزادة منه ما دام خيراً حتى ينبغ فيه ويغدو إماماً سباقاً، هكذا كان عبد اللّه واحداً من الأبطال الصناديد والعبّاد الأتقياء الصّالحين.

حدثتهم بكل ما سمعت، وفقهتهم بما علمت من أمر ربها، وحثتم على الطاعة لأنها تعرف أنها مسؤولة عند الله عن هؤلاء الأبناء بعدما سمعت قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**﴾[1]، وعرفت أنها أمانة تحاسب عليها عند الله: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»[2]، فقامت بالمسؤولية، وأدت الأمانة، وكانت أماً راعية ملمة، ربت أولادها وأحفادها على الإسلام، ولم تترك أمراً يجب أن ينشأوا عليه إلا وعلمتهم إياه ودربتهم عليه، فإذا ما وجدت حاجتهم إلى أمور أخرى لا تعرفها دفعتهم إلى أختها عائشة لتحدثهم وتعلمهم.

يقول عليه الصّلاة والسلام فيما رواه مالك بن الحويرث: «**ارجعوا إلى أهليكم، فكونوا فيهم، وعلموهم، ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم،**

---

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

**وليؤمكم أكبركم»**[1]. وها هي تحدث بناتها عن الحيض، وعما يباح للنساء وما لا يباح، وكيف تعامل زوجها، وماذا يحق لها أن تأخذ من ماله وما لا يحق، وما يجوز لها من النفقة والزينة، وما يحرم.

وها هي تحرص على تحنيك ابنها عبد اللَّه، واختيار الاسم والكنية له وهو صغير، وبذلك تصبح سنَّة من السنن.

وها هي تحدث أبناءها عن الحج والعمرة، وعما يجوز للمرأة لبسه وما يحرم، حتى يرجع إليها ابنها عبد اللَّه مع ابن عباس ويحتكمان في أمر من أمور الحج اختلفا فيه، فتجيبهما بما تعرف من سنَّة رسول الله ﷺ، بل تزرع في نفوس أبنائها الخوف من الله ـ عزّ وجلّ ـ حين تتحدث لهم عن الكسوف وارتباطه بعظمة الله وقدرته، وفتنة القبر وعذابه، وهول الموت، وعن السؤال في القبر والحساب عند الله، وتحدثهم عن الصيام، وغير ذلك من أمور العبادة، وتحدثهم عن الذبائح وما يحرم وما يجوز مما كان يلتبس على الناس، وتحدثهم عن زينة النساء وما يجوز لهن منها.

وتحدثهم عن الجنة والنعيم الذي لا يزول، وعن سدرة المنتهى.

وتحدثهم عن الطغاة الكذابين، وعن المبير الذي يفتك بالناس ويكذب على رسول الله ﷺ.

وتحدثهم عن الهجرة العظيمة وما كان فيها من أمور مهمة وخطيرة تتجلى فيها عظمة الله ورعايته لعباده، وطغيان الكفار وغلظة قلوبهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين.

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي.

إنها تخطو بهم مع أيامهم وسنواتهم المبكرة إلى دنيا الإسلام، تعطيهم من السلوك والتربية ما ينغرس في قلوبهم ونفوسهم، ويصبح جزءاً من حياتهم، حتى يغدو الإيمان حياة لهم، والإسلام روحاً يعيشون بها ﴿**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**﴾[1].

وولدت ابنها عروة سنة اثنتين وعشرين للهجرة، فلما بدأ وعيه يتفتح آنست عنده حباً للعلم والتفقه، فكانت تجلس معه كلما رأت عندها متسعاً من الوقت لتعلمه كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، وتحدثه عن أيام الإسلام الأولى في مكة وهجرة المسلمين إلى المدينة وغزوات الرسول ﷺ للمشركين، ويصغي الفتى حتى تنقش الآية والحديث والحادثة على قلبه، وتنطبع في ذهنه. وتدرك أن لابنها شأناً، فدفعته لمصاحبة خالته عائشة أم المؤمنين لكي يزداد علماً وفقهاً، وليتخلق بخلق رسول الله ﷺ.

وأصبح لا ينقطع هو وعبد اللَّه عن خالته، حتى سمع منها كثيراً، وأخذ عنها وعن أمه حديث رسول الله ﷺ، حتى تألق بين الناس، واشتهر بالفقه، وأصبحت سمة التقوى والخوف من الله بادية عليه ظاهرة في سلوكه.

وعجب من علم خالته عائشة وكثرة تفقهها.

وجاء في يوم من الأيام إلى البيت ليحدث أمه بما حدث معه.

كنا نتسامر أنا وأخي مصعب، وعبد اللَّه بن عمر، وعبد الملك بن

---

(١) انظر القسم الثاني من الكتاب (مسند الأسماء) لترى الأحاديث التي روتها عن رسول الله ﷺ، وتأخذ صورة عما كانت تهتم به من أمور دينها وتربية أبنائها.

مروان بفناء الكعبة، فقال أحدنا وهو يسأل: تعالوا نتحدث عما يتمناه كل منا في مستقبل أيامه.

قالت أسماء: إيه، وماذا تمنيتم؟

قال عروة: أما أخي مصعب فقد تمنى أن يجمع الله له ولاية العراق وأن يتزوج من ريحانتي قريش: سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة.

قالت: وماذا تمنى عبد اللَّه بن عمر؟

فقال: تمنى عبد اللَّه بن عمر الجنة.

فقالت: ما أفضل ما تمنى، إنه ابن عمر، وماذا تمنى عبد الملك؟

فقال: تمنى أن يكون خليفة للمسلمين.

فقالت: وماذا تمنيت أنت؟

تمنيت يا أماه أن أتفقه في دين الله عزّ وجلّ، وأن يحمل الناس عني حديث رسول الله ﷺ.

وفقك الله يا بني لتحقيق ما تمنيت، ولكن هذا يحتاج إلى جهد ومداومة، فالزم صحابة رسول الله ﷺ، واسأل خالتك عائشة وافتح قلبك لآيات الله، وتعلمها حتى تعمل بها، وحينها تصبح فقيهاً يأتيك الناس، ويرضى عنك رب العالمين.

وتعهدت أسماء ابنها عروة الذي فاته أن يرى رسول الله ﷺ ويستمع منه، وكان هذا حافزاً له على أن يستزيد ويسأل أمه وخالته والصّحابة عن كل شيء من حياة رسول الله ﷺ، وتدفعه أسماء إلى أختها عائشة لتزيد ابنها علماً وتربية وحكمة، لما تعرف ما كان

لأختها من فضل، فإذا بعروة يلازم خالته عائشة ويرى فيها رضوان الله عليها بحراً من العلم يغرف منه ما يشاء، كانت تحدثه بحديث رسول الله ﷺ، وتحكي له عن الدعوة في مكة والمدينة، وتبين له سنَّة النبي عليه الصّلاة والسلام في كل أموره، وتنشد له الشعر الجيد، وتذكر له الحوادث المهمة وتعلمه الأنساب، وتحدثه عن الطب، حتى أصبح من أكبر علماء التابعين، عرف فضله بين الناس واشتهر بعلمه وتقواه، وتحدث عنه الناس، وقصده المتعلمون. حدث عنه ابنه هشام فقال: جاء عروة مرة فقال لبنيه: يا بنيَّ، لا يهدينَّ أحدكم إلى ربه عزّ وجلّ ما يستحي أن يهديه إلى كريمه، فإن الله عزّ وجلّ أكرم الكرماء، وأحق من اختير له.

ثم قال: يا بني، تعلموا فإنكم إن تكونوا صغراء قوم عسى أن تكونوا كبراءهم، واسوأتاه، ماذا أقبح من شيخ جاهل!

وكان ـ رحمه الله ـ يهتم بتربية أبنائه على الخلق القويم، والمعاملة الحسنة، والتقوى، وأوصاهم مرة فقال لهم:

مكتوب في الحكمة لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطاً، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

وهناك أعظم من هذه المآثر التي عرف بها، فقد كان مضرب المثل بين التابعين في الرضا بقدر الله، والصّبر على البلاء، والتوكل على الله. قدم عروة على الوليد بن عبد الملك ذات يوم ومعه ابنه محمد، فدخل محمد دار الدواب، فضربته دابة فخرَّ فحُمل ميتاً، ثم وقعت في رجل عروة الأكلة (نوع من المرض) فلم يدع تلك الليلة وِرْدَه، فقال الوليد: اقطعها (أي رجلك)، قال: لا، (لأنّه يريد أن

يصبر على الألم) فترقت الأكلة إلى ساقه، فقال له الوليد: اقطعها وإلا أفسدت عليك جسدك، فقطعت بالمنشار، وهو شيخ كبير، ولم يمسكه أحد، وقال بعدها: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً.

وكان من عادته أن يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف، ويقوم به ليله، فما ترك ذلك إلا ليلة قطع رجله، ثم عاد للقراءة من الليلة المقبلة، ولما عاد من دمشق إلى المدينة بعدما أصابه الذي ذُكر، دعا ربه بهذا الدعاء:

اللهم إنه كان لي أطراف أربعة، فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة، فلك الحمد، وأيم الله لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن أبليت طالما عافيت.

وكان يقول للناس: إذا رأى أحدكم شيئاً من زينة الدنيا وزهرتها فليأت أهله وليأمرهم بالصلاة، وليصطبر عليها، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**لا تمدن عينك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه**...﴾ الآية.

وهكذا صار عروة من كبار المحدثين والفقهاء الأتقياء الصّالحين، وكان له حائط (بستان) فإذا كان أيام الرطب يثلم حائطه ثم يأذن للناس فيه، فيدخلون ويأكلون.

هكذا كانت أسماء تربي أولادها، وترعاهم، ليكونوا أبطال حرب يجاهدون في سبيل الله، ودعاة صدق يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعلماء أتقياء يدعون بدعوة الله.

لقد أرادتهم أن يكونوا بناة في هذا الصرح العظيم، يهتدون بنور الله عزّ وجلّ ويقتفون أثر رسول الله ﷺ، فهل يمكن أن يكونوا

كذلك إن لم يروا بيوتاً إسلامية صالحة، ترعى فيها حرمات الله، وتعلو فيها كلمة الله.

بل كيف يكونون كذلك إن لم يكن الأب قدوة صالحة في الإيمان، والتقوى، والصّدق، والعمل، والدعوة، والجهاد؟

وكيف يكونون كذلك إن لم تكن الأم قدوة صالحة في الإيمان والتقوى، ومدرسة أمينة تعلم السلوك وتهذب الطباع، وترسم الطريق وتغرس الفضائل، وتوقظ فطرة الصّلاح، وتربي الأبناء على حب الشهادة، وإيثار مرضاة الله عزّ وجلّ؟

وهل يمكن للمرأة الغارقة في الرفاه، التي تستهلكها الدنيا من طعام وشراب وزينة وتفاخر، ومظاهر براقة، كيف يمكن لهذه المرأة أن تربي رجالاً أبطالاً، وعلماء أتقياء، وزهاداً كرماء؟ أو كيف تربي بنات صالحات قانتات، بنات عالمات حييات؟ وهل يمكن للبيوت التي تعيش على رؤية المنكرات، وتدع تربية الأطفال للممثلين والممثلات، والمطربين والمطربات، والأفلام والمسلسلات أن تربي جيلاً صالحاً؟

وإذا كانت النصائح والإرشادات، والقدوة والمثل، والصورة المحتذاة هي تلك الصور التي يمثلها أشقياء تعساء، وفسقة وعاهرات، فكيف يرجى صلاح جيل تناط به غداً المسؤوليات؟

فهل يستيقظ فينا الحس الإسلامي الصّحيح؟ وهل ندرك خطورة واقعنا الإسلامي الذي قَبِل أن ينجرف مع التيار دون أن يدرك العاقبة مع أننا ننشد الخير ونرجو الفلاح؟ وهل سمعتم مصلحاً ـ أي مصلح ـ تربى على مثل ما نربي به الأبناء من لهو، وغناء، ومتابعة

لكل ما تنتجه بيوت التخريب التي أطلقوا عليها اسم الفن؟

وهل سمعتم أن أحداً من أجدادنا أخذ موعظته، وتربى حسه وخلقه من مثل هذه المشاهد والمسرحيات؟

عجباً والله أن نسأل عن سبب الخسران، وفساد الأهل والولد، وشذوذ الأبناء والأحفاد بعد أن غذيناهم بالحرام، وأطعمناهم سماً، وعلمناهم على الفجور، وتركناهم بين يدي العصاة والفسقة والخاسرين؟

**﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾**، هذا هو الطريق.

هكذا خرّج أجدادنا من بيوت الإيمان التي يعمرها الحب لله والخوف منه أبناء أتقياء صالحين.

كان الأب قدوة، مؤمناً، مجاهداً يبكي من خشية الله، ويؤثر مرضاته على كل شيء، فيراه الأبناء باكياً مشفقاً من خشية الله فيصلحون.

هكذا كانت أسماء، وهكذا كان بيت الزبير، بيتاً من بيوت الإيمان التي خرّجت جيلًا مؤمناً، فكان منهم الفرسان الصناديد، وكان منهم العلماء الأتقياء، وكان منهم المحدثون الثقات. وكما كانت أسماء بتقواها وحرصها على التفقه بدين الله لتعبد الله على بصيرة، كان أولادها من بعدها كذلك.

لهذا كانت تعلّم أولادها وأحفادها مما علمته وسمعته من رسول الله ﷺ.

جاء في «تهذيب التهذيب» لابن حجر أنه روى عنها الحديث

ابناها عبد اللَّه وعروة أبناء الزبير، وأحفادها عباد بن حمزة بن عبد اللَّه بن الزبير، وعمه عباد بن عبد اللَّه، وعبد اللَّه بن عروة بن الزبير، وهشام بن عروة، وعباد بن عبد اللَّه، وعبد اللَّه بن عروة، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير، ومولاها عبد اللَّه بن كيسان، وصفية بنت شيبة، وعبد اللَّه بن عباس، ومسلم المقرئ وأبو نوفل بن أبي عقرب، وعبد اللَّه بن أبي مليكة، ووهب بن كيسان. وزاد بعضهم: أبو واقد الليثي، وطلحة بن عبد اللَّه بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر، ومسلم بن عبد اللَّه القرشي، وعبادة بن المهاجر، والمطلب بن عبد اللَّه بن حَنْطب، وأبو بكر بن عبد اللَّه بن الزبير، ومحمد بن المنكدر التَّيمي، وأم كلثوم مولاة الحَجَبة، وغيرهم[1].

هكذا كانت بيوت أجدادنا، مدرسة للإيمان والعلم، الأم تشرف على تربية الأبناء، والأب يعلمهم ويدربهم ويسعى من أجلهم حتى ينشأوا على الخير ويكونوا من الصّالحين.

عن هشام بن عروة عن أبيه قال: (قال ابن الزبير لأبيه: يا أبت، حدثني عن رسول الله ﷺ حتى أحدث عنك، فإن كل أبناء الصحابة يحدث عن أبيه. قال: يا بني، ما من أحد صحب النبي ﷺ بصحبة إلا وقد صحبته بمثلها أو أفضل، ولقد علمت يا بني أن أمك أسماء بنت أبي بكر كانت تحتي، ولقد علمت أن عائشة بنت أبي بكر خالتك، لقد علمت أن أمي صفية بنت عبد المطلب، وأن أخوالي حمزة وأبو طالب والعباس، وأن رسول الله ﷺ ابن خالي، ولقد علمت أن عمتي خديجة بنت خويلد كانت تحته، وأن ابنتها

---

(١) «تهذيب التهذيب» لابن حجر ٤/ ٦٦٣.

فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولقد علمت أن أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وأن أم صفية وحمزة هالة بنت وهب، ولقد صحبته بأحسن صحبة والحمد لله، ولقد سمعته ﷺ يقول: «**من قال عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار**»[1]. فهل بعد هذا يمكن للولد أن يتجرأ على كذب، أو يفرط في أمر مخافة من الله، إنها التربية الصّالحة، إنه البيت المسلم.

وهكذا كان أبناء الزبير يأخذون عن أبيهم الزبير بن العوام وعن أمهم أسماء بنت أبي بكر، فيتربون تربية إسلامية، وينشأون تنشئة قرآنية، بل كان جزء من حياتهم يقضونه في بيت رسول الله ﷺ، يتعلمون آدابه عليه الصّلاة والسلام، ويتنسمون العطر النبوي من أمهم عائشة رضي الله عنها، فنبتوا نباتاً حسناً.

في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، كل صواحباتي لهن كنى، قال ﷺ: «**فاكتني بابنك عبد اللَّه**».

قال الراوي: يعني بابنها عبد اللَّه بن الزبير، وهو ابن أختها أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهم ـ .

---

(١) «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» للهيثمي، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، ص٥٤٦، رقم الحديث ٢٢١٤.